بحث محكم | قسم الدين وقضايا المجتمع الراهنة | 21 مارس 2022

الفيروسات الثَّقافيَّة

محمد سيد ريان
باحث مصري

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2022
All rights reserved © 2022

الفيروسات الثَّقافيَّة[1]

1 - البحث مقتطف من كتاب «ثقافة ما بعد الكورونا...» الصادر عن دار مؤمنون بلا حدود للنشر والتوزيع- بيروت- 2022

ملخص:

توضح دراسة المشكلات الحياتيَّة وسلوكيَّات النَّاس اليوميَّة الكثير من خبايا وأسرار التَّفكير البشريّ المعقَّد، فأشكال الانفلات الاجتماعيِّ كمشاهدة سائقين يكسرون إشارة المرور، أو موظَّفين فاسدين يعتمدون على الرّشوة والاحتيال، أو تصرُّفات رجال دولة يستغلُّون وظيفتهم لقهر المواطنين، كلُّ تلك السُّلوكيَّات الخاطئة ناتجة عن تفاعلات وأنماط مجتمعيَّة خاطئة، ولا بُدَّ من إيجاد حلول لها في إطار من التَّوافق الاجتماعيِّ القائم، وفي المقابل فإنَّ تنمية الأفكار الابتكاريَّة والسُّلوكيَّات الصَّحيحة مثل الحملات التَّطوُّعيَّة وتطوير التَّعليم وتنشيط الاقتصاد، أو نشر المعرفة يسهم في زيادة التَّماسك الاجتماعيِّ.

مقدمة:

الفيروسات؟!

تذكر معظم المعاجم اللُّغويَّة العربيَّة أنَّ الفيروسات كائنات دقيقةٌ لا تُرَى بالمِجهر العاديّ، وتُحدث بعضَ الأَمراض.

وكلمة فيروس انتشرت في مجالات وعلوم عديدة منذ فترة طويلة، فمن العلوم الطِّبِّيَّة لعلوم الكمبيوتر والإنترنت، وساعد على ذلك التَّطوُّر التِّقنيُّ الكبير، ففيروس الحاسب مثلاً يقوم بتغيير خصائص المجلَّدات والملفَّات والبرامج الَّتي يصيبها؛ لتقوم بتنفيذ بعض الأوامر إمَّا بالإزالة أو التَّعديل أو التَّخريب، وما شابهها من عمليَّات.

وكما أنَّ هناك فيروسات تصيب الأجسام البشريَّة والأجهزة؛ فهناك فيروسات تصيب العقول، وتظهر أعراضها في الأفكار والقِيَم والأنماط السَّائدة مجتمعيًّا وثقافيًّا.

ويمكن تعريف الفيروسات الثَّقافيَّة بأنَّها معتقدات أو أفكار وقيم فاسدة تصيب البناء الثَّقافيَّ والحضاريَّ.

وكما أنَّ هناك مضادًّا لفيروسات الكمبيوتر؛ فلا بُدَّ من إيجاد مضادٍّ للفيروسات الثَّقافيَّة من خلال العمل على المواجهة، وتوفير الحلول للحدِّ من تأثيرها، والعمل للقضاء عليها نهائيًّا.

فدراسة المشكلات الحياتيَّة وسلوكيَّات النَّاس اليوميَّة توضح الكثير من خبايا وأسرار التَّفكير البشريّ المعقَّد، فأشكال الانفلات الاجتماعيِّ كمشاهدة سائقين يكسرون إشارة المرور، أو موظَّفين فاسدين يعتمدون على الرِّشوة والاحتيال، أو تصرُّفات رجال دولة يستغلُّون وظيفتهم لقهر المواطنين، كلُّ تلك السُّلوكيَّات الخاطئة ناتجة عن تفاعلات وأنماط مجتمعيَّة خاطئة، ولا بُدَّ من إيجاد حلول لها في إطار من التَّوافق الاجتماعيِّ القائم، وفي المقابل فإنَّ تنمية الأفكار الابتكاريَّة والسُّلوكيَّات الصَّحيحة مثل الحملات التَّطوُّعيَّة وتطوير التَّعليم وتنشيط الاقتصاد، أو نشر المعرفة يسهم في زيادة التَّماسك الاجتماعيِّ.

وكذلك دراسة الإشكاليَّات الفكريَّة والفيروسات الثَّقافيَّة يوضح لنا خبايا وأسراراً تخصُّ العديد من أزماتنا الحضاريَّة والثَّقافيَّة الَّتي تبدو صعبة على الفهم والحلِّ بدون العودة للجذور والأصول الرَّاسخة لذلك التَّأخُّر والتَّدهور الفكريّ.

1- الفيروسات الثقافية:

نتناول فيما يلي أبرز تلك الفيروسات الثَّقافيَّة الَّتي تُسبِّب الكثير من المشكلات، وتساهم في التَّأخُّر الحضاريِّ والثَّقافيِّ والإنسانيِّ بصفة عامَّة.

الجهل:

الجهل هو أخطر الفيروسات الثَّقافيَّة بلا شكٍّ، ومشكلته الأساسية تأتي من أنَّه نقيض العلم، وعدوُّ الحضارة، وعقبة التَّنمية، وقاتل الفكر، والصَّخرة الَّتي تتحطَّم عليها آمال كثيرة لتغيير الواقع.

ويذكر الدكتور حامد طاهر: أنَّ الجهل حالة سلبيَّة أو عدميَّة يسقط فيها العقل فلا يعلم، ولا يتطلَّع للعلم. وإذا كان العلم يتطلَّب جهداً بشريَّاً ومشقَّة؛ فإنَّ الجهل يتمرَّغ في الرَّاحة، وهو عبارة عن انتكاسٍ ذهنيٍّ يركن للتَّقليد، ويرفض المبادرة، ويستعصي على التَّغيير. كما يأبى التَّطوُّر والتَّجديد[1].

ويشير الدكتور محمود الضَّبع: إلى أنَّ الجهل نمط له مرتكزاته الثَّقافيَّة والفكريَّة، وله منطلقاته العقائديَّة الَّتي تحتكم إلى قانون الجماعة وقانون البيئة وقانون الأعراف التي سادت وتأصلت عبر قرون، وهو على هذا النَّحو يمثِّل نمطاً معرفيَّاً، يدين في تشكُّله داخل العقل البشريِّ إلى المعتقد، ذلك الَّذي يلعب دوره الفاعل في تشكيل ما نطلق عليه ثقافة الجهل، والمعتقد المعنيُّ هنا ليس مقتصراً على الدِّينيِّ فقط بمفهوم الفكر المرتبط بالدِّيانات المقدَّسة، وإنَّما أيضاً بكلِّ ما اعتنقه الإنسان من مبادئ لا يقبل المساس بها ولا تغييرها[2].

ويوضح الكاتب الفرنسيُّ توما دو كونانك thomas de koninck في كتابه المهمّ «الجهل الجديد ومشكلة الثَّقافة» بقوله: «هناك نوعان جديدان متناقضان من الجهل: الأوَّل يفتح الطَّريق ويُحرِّرها، إذ يطرح تساؤلات جديدة، تثيرها الاكتشافات الجديدة». ولعلَّنا جميعاً نعرف أنَّ السُّؤال هو المفتاح السِّحريُّ لأيَّة معرفة، سواء كانت بسيطة في ظاهرها أم معقَّدة ومتشابكة في جوهرها. الشَّكل الثَّاني من الجهل هو (الجهل المزدوج) حسب تعريف «أفلاطون»: «حيث نتوهَّم أنَّنا نفهم في حين أنَّنا لا نفهم»[3]، وهذا الجهل هو سبب الأخطاء الَّتي يتعرَّض لها فكرنا وثقافتنا على مرِّ العصور، وتزداد في وقتنا الحاليِّ بسبب طغيان ثورة التِّكنولوجيا الحديثة.

وللجهل أنواع عديدة لعلَّ أبرزها الجهل الدِّينيُّ، ويعدُّ كتاب: «الجهل المقدَّس.. زمن دين بلا ثقافة» للكاتب أوليفيه روا olivier roy، من أهمّ الكتب الَّتي تناولت ذلك الموضوع؛ حيث يؤكِّد الكتاب على حقيقة مهمَّة يلتزم بها معظم المتعصِّبين والمتشدِّدين دينيَّاً، وهي أنَّهم لا يحتاجون للثَّقافة ولا للعلم ولا لأيَّة معرفة

1 - http://hamedtaher.com/index.php?option=com_content&view= article&id=914&itemid=119

2 - http://gate.ahram.org.eg/news/1896260.aspx

3 - دوكونانك، توما، الجهل الجديد ومشكلة الثقافة، ترجمة منصور القاضي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، 2004، ص5.

جديدة تضاف لأفكارهم القديمة، والإقرار بالمعاني الحرفيَّة دون تأويل أو تفكير أو تفسير لاعتقاده أنَّ ذلك يعدُّ خروجاً منه عن أصل الدِّين والإيمان المطلق الَّذى يُحقِّق له النَّعيم الأرضيَّ والسَّماويَّ.

نتيجة كارثيَّة وصلنا إليها، ويشير إليها الكتاب وهي أنَّ من تأثيرات العولمة الثَّقافيَّة والانفصال بين المعالم الدِّينيَّة والمعالم الثَّقافيَّة أن أتيح بوجه خاصٍّ إمكان استهلاك منتجٍ دينيٍّ من دون حاجة إلى معرفة الثَّقافة الَّتي أنتجته، وهي غالباً ما تكون من ثقافات منغلقة ومتشدِّدة ومتطرِّفة وبعيدة عن المدنيَّة والحضارة[4].

ونستنتج من ذلك مدى انتشار ثقافة الجهل، والَّتي تؤدِّي بطبيعة الحال إلى نكسات متتالية لمجتمعنا وثقافتنا، ومن ثمَّ إلى التَّخلُّف عن الحضارة إلى أن أصبحنا خارج التَّاريخ الإنسانيِّ.

الخرافة والتَّخلُّف:

يمكن اعتبار الخرافة من الفيروسات الخبيثة أو الَّتي تختبئ تحت ستار من العِلم المزيَّف، ولذلك تكمن خطورتها في أنَّها مغلَّفة بقشرة المعرفة المضلِّلة، بينما تحتوي داخلها على كلِّ نقيض للمعرفة الحقيقيَّة والثَّقافة السَّليمة.

وفي رأيي، فإنَّ البحث في جذور الماضي وبقايا التُّراث عن أصول الخرافة والأسطورة يساعد في تفسير معظم الظَّواهر العلميَّة الحديثة، فلو استطعنا أن نحقِّق ذلك؛ سنصل إلى بدايات التَّخلُّف الحضاريِّ، وأسباب التَّقدُّم الحضاريِّ للآخرين، وشروط النَّهضة العلميَّة والحضاريَّة.

عندما نتأمَّل الواقع الحاليَّ في العالم ونقارن بين أوضاعنا العربيَّة المتدهورة، وبين دول العالم الَّتي تشهد تقدُّماً ملحوظاً في احترام الإنسان قبل الازدهار العلميِّ والثَّورة المعرفيَّة والتِّكنولوجيَّة، في حين نظلُّ نحن متمسِّكين بأفكار متخلِّفة ليس لها عائد إلَّا تراجع مستمرٌّ، ومن هنا تظهر أهمِّيَّة تطبيق سنن الحياة والواقع والحاجة البشريَّة في تطوُّرها لتلائم وتواكب مجريات الحياة المعاصرة والسَّريعة والجديدة.

ويجب علينا أن نؤكِّدَ من حين لآخَر أنَّنا نحمل داخلنا بذور التَّخلُّف الَّتي تعود بنا للوراء، وكذلك بذور التَّقدُّم لو قمنا بالتَّخلِّي عن المعتقدات والأفكار الَّتي تعوق مسيرة الحضارة الإنسانيَّة في بلاد العرب والمسلمين.

الأُمِّيَّة:

غالباً ما نتَّجه عند ذِكر كلمة الأُمِّيَّة إلى أُمِّيَّة الحرف والمعنى، وبحسب تعريف الأمم المتَّحدة فهي تعني: عدم القدرة على قراءة وكتابة جُمل بسيطة في أية لغة.

4 - روا، أوليفيه، الجهل المقدَّس.. زمن دين بلا ثقافة، ترجمة صالح الأشمر، دار السَّاقي، بيروت، 2012م، ص51

وكانت معدَّلات الأُمِّيَّة قد قُدِّرت في عام 1970 بـــ73%، وانخفضت إلى 38.8% في عام 2000، بحسب إحصائيَّات المنظَّمة العربيَّة للتَّربية والثَّقافة والعلوم «ألكسو».

وذكر بيان للمنظَّمة في أيلول/سبتمبر 2019 -بمناسبة الاحتفال باليوم العالميِّ لمحو الأُمِّيَّة - أنَّ عدد الأُمِّيِّين في الوطن العربيِّ ما زال مرتفعاً ويُقدَّر بحوالي 74 مليون نسمة، ما يقابل 21% من إجمالي سكَّان الدُّول العربيَّة تقريباً، وفي حدود 10 بالمائة من مجموع عدد الأُمِّيِّين في العالم، رغم ما تبذله الدُّول العربيَّة من جهود في هذا المجال وما يُسجَّل مِن تحسُّن في معدَّل القرائيَّة على الصَّعيد العالميِّ[5].

ويرتبط وجود الأُمِّيَّة بفترات الإهمال السَّابقة، ولعقود طويلة من جانب الحكومات المتعاقبة، وكذلك بعض التَّصرُّفات الخاطئة من جانب العامَّة نتيجة الفقر والظُّروف المعيشيَّة الصَّعبة ورغبتهم في الإسراع في الحصول على المال بدلاً من الانتظار لسنوات طويلة في تعليم مستمرٍّ غير مُجدٍ من وجهة نظرهم.

وفي عصر تسيطر عليه التِّكنولوجيا؛ أصبحنا نتحدَّث بالأساس عن الأُمِّيَّة الرَّقميَّة، ولسنا هنا نقصد مجرَّد استخدام أدوات التِّكنولوجيا، ولكنَّ التَّعامل الهادف والمُجدي والمفيد، وليس الاستهلاكيَّ البحت بدون هدف.

ونظراً لأنَّ فكرة الأُمِّيَّة ترتبط بالأساس بفكرة الفقر والثَّراء؛ لذا يمكننا الرُّجوع لكتاب مهمّ في هذا الشَّأن وهو: «الذَّرَّة الاجتماعيَّة.. لماذا يزداد الأثرياء ثراءً والفقراء فقراً» للعالِم والمفكِّر الكبير مارك بوكانان mark buchanan، والفكرة العامَّة الَّتي ينادي بها الكتاب هي أنَّ النَّاس عبارة عن ذرَّات في مادَّة اجتماعيَّة، يمكن أن تتيح تفسير كثير من الأنماط؛ الَّتي تنبعث مرَّة تلوَ أُخرى في جميع المجتمعات الإنسانيَّة. ويتمثَّل هذا في نشوء الطَّبقات الاجتماعيَّة، والتَّدفقِ الجائر الَّذي يتَّسم به حلول الثَّروة في أيدي القلَّة.

وقد صدر الكتاب في طبعتين، الطَّبعة الأولى عن الدَّار المصريَّة اللُّبنانيَّة، ولأهمِّيَّة الكتاب قام مشروع مكتبة الأسرة بإعادة طباعته في طبعة شعبيَّة عام 2010، وذلك بترجمة رائعة لأحمد علي بدوي، وتقديم متميِّز للخبير الاجتماعيِّ والتَّربوي الرَّاحل الأستاذ الدكتور حامد عمَّار.

قد يعتقد الكثيرون أنَّ الكتاب ما هو إلَّا تنظير اجتماعيٌّ لا علاقة له بالواقع المعيش؛ لأنَّ فكرته تبدو وكأنَّها تبحث عن يوتوبيا أو مدينة فاضلة إنسانيَّة من خلال التَّوصُّل لقوانين صارمة تحكم البشر. لكنَّ المؤلِّف يؤكِّد أنَّ كتابه منغمس في المشكلات الحياتيَّة لأغلب النَّاس، فهو يناقش الثَّروة والسُّلطة السِّياسيَّة وأحقاد الطَّبقات والتَّمييز العنصريَّ، والأزياء وأعمال الشَّغَب والأسواق الماليَّة، وهو يتناول المفاجآت الاجتماعيَّة؛ تلك الأحداث والتَّغيُّرات الَّتي تطرأ دون أن ينشئها شيء، وتُبدِّل في حياتنا، وعن تفسير تقصيرنا عن إدراك أسبابها، والواضح من ردود أفعالنا تجاهها.

5 - http://www.alecso.org/nsite/ar/newscat/427-2019-بيان-الألكسو-في-اليوم-العالمي-لمحو-الأمّية-8-سبتمبر

ومن الإشارات الواردة بالكتاب الحديث عما يُسمَّى «الفيزياء الاجتماعيَّة»، فعالم الفيزياء يبذل جهداً كبيراً لفهم الكيفيَّة الَّتي تتجمَّع بها الذَّرَّات مع بعضها البعض، وتُكوِّن جميع الموادِّ الَّتي نعرفها؛ بعضها لزج، والبعض الآخَر منفلِت (كالزِّئبق)؛ بعضها موصل للكهرباء، وغيره ليس كذلك. فالماسات لا تضيء ببريقها؛ لأنَّ الذَّرَّات تجعلها تومض، بل بسبب الكيفيَّة الَّتي بها تكون الذَّرَّات معاً نمطاً معيَّناً، وفي كثير من الأحوال تقلُّ أهمِّيَّة الأجزاء عن تلك الَّتي للنَّمط. هذا بشأن المادَّة، وهو كذلك بشأن النَّاس[6].

ويشير المؤلِّف أيضاً إلى أنَّ الأزمة تكمن في صعوبة التَّوصُّل إلى قوانين علميَّة ثابتة تحكم السُّلوك البشريَّ، والمقصود بالقانون العلميِّ هنا إيجاد نمط يصدق وجوده وتطبيقه على حالة تلوَ أُخرى، وبذلك نستطيع فهم طبيعة الأحداث والأفكار الإنسانيَّة كما هو الحال مع طبيعة عمل الأشياء[7].

ويوضح بوكانان أنَّه على الرَّغم من أنَّ النَّاس أكثر تعقيداً من الذَّرَّات أو الأحجار، إلَّا أنَّ الأمل موجود في تحقيق العلم الاجتماعيِّ لنتائج مشابهة للفيزياء. فعليك أوَّلاً أن تفهم طابع الذَّرَّات الاجتماعيَّة، ثمَّ تعرف ما يحدث عندما تتفاعل أيٌّ من هذه الذَّرَّات مع بعضها بعضاً؛ منشئة عالماً حافلاً بالأنماط والنَّواتج الاجتماعيَّة.

ويوضح الكاتب أخطر ما يواجهنا عند محاولة التَّنبُّؤ بالعالم الإنسانيِّ؛ وهو العناد البشريُّ، وكما قال الفيلسوف البريطانيُّ كارل بوبر: «ما يتاح للإنسان بفضل حرِّيَّة إرادته من قدرة من الإتيان بأفعال غير مسبوقة (إبداعاً وابتكاراً وعلماً) يكفي وحده للحيلولة دون أيِّ تكهُّنات بمستقبل التَّاريخ الإنسانيِّ».

أخذتني فترة تأمُّل عميقة وأنا أقرأ الكتاب، وأتذكَّر لحظة مهمَّة من أهمِّ اللَّحظات الحاسمة في تاريخ مصر، وهي الفترة التَّالية على قيام ثورة يناير، فمطالب الثَّورة وهي «عيش - حرِّيَّة - عدالة اجتماعيَّة» كانت أساسيَّة لمعظم المصريِّين، وعلى الرَّغم من أنَّ فترة الثَّورة وخلال ثمانية عشر يوماً ظهرت إيجابيَّات عديدة في سلوكيَّات المصريِّين؛ إلَّا أنَّ ما بعدها كان مأساة إنسانيَّة، وظهرت سلبيَّات لا حصر لها، وتبدو هنا واضحة فكرة الذَّرَّات، فبينما كان اتِّحاد الذَّرَّات الاجتماعيَّة للشَّعب المصريِّ وسيلة لتحقيق شيء ملموس حتَّى وإن كانت المدَّة قصيرة، في المقابل كان للأنانيَّة السِّياسيَّة والفرقة والتَّشتُّت بعيداً عن قضايا الأُمَّة المصيريَّة؛ نتائج بالغة السُّوء على المسار الوطنيِّ.

وهنا نبَّهني المؤلِّف إلى مقولة مهمَّة للمؤرِّخ الأمريكيِّ (هنري بوكس آدامز) بأنَّ السِّياسة الَّتي تنسب نفسها للعلم في حلِّ المشاكل والأزمات السِّياسيَّة والاجتماعيَّة، إنَّما غالباً ما تعتمد على التَّنظيم المتوالي للأحقاد، ورغبة دفينة في الانتقام، بين الفئات والطَّوائف والمجتمعات، وهكذا يستطيع بعض الأفراد فرض

6 - بوكانان، مارك، الذَّرَّة الاجتماعية: لماذا يزداد الأثرياء ثراءً والفقراء فقراً، ترجمة: أحمد على بدوي، مكتبة الأسرة، 2010، ص51

7 - بوكانان، مارك، المرجع السَّابق، ص31

قوّة هائلة على التّاريخ الإنسانيّ؛ ليس لأنّهم بهذه القوّة، أو لأنّ لهم تأثيراً سحريّاً على الجماهير (كاريزما)، أو ذكاءً خارقاً، بل لأنّهم ينجحون في التّلاعب بالأنماط والولاء والانتماءات الاجتماعيّة.

ويؤكّد المؤلّف أنّنا نشهد حاليّاً ثورة في مجال العلوم الاجتماعيّة تشبه كثيراً «ثورة الكمّ» في العلوم الفيزيائيّة، وعلى الرّغم من أنّ الطّريق لا يزال طويلاً للوصول لقوانين صارمة تحكم العالم البشريّ، فإنّ العلماء قد اكتشفوا أنظمة لها صفات القوانين، وهم يُقرُّون الآن بأنّ هذه الأنظمة لا تتعارض بأيّ حال من الأحوال مع حرّيّة الإرادة الفرديّة. فيمكن أن نكون أفراداً أحراراً، ولكن في الوقت نفسه تؤدّي أفعالنا مجتمعة إلى نواتج للمجموع يمكن التّكهُّن بها. هذا مشابه كثيراً لما نجده في الفيزياء، حيث تؤدّي الفوضى على مستوى الذّرّات إلى الدّقّة الفائقة للدّيناميكا الحراريّة أو حركة الكواكب.

ويعطي الكتاب مثالاً عمليّاً في مجال الفيزياء الاجتماعيّة بما أحدثه الحاسب الإلكترونيُّ من طفرة اجتماعيّة كأداة علميّة، فقد عرف العلماء عن طريقه كيف يزيدون من قدرة عقولهم بفضل تكنولوجيا الحساب والمنطق الإلكترونيّ.

وفي تجربة عمليّة لِمَا نحتاجه من إعمال العقل الجمعيّ والتّفكير النّقديّ؛ نجد الهند هي الأبرز في هذا المجال، ففي السّبعينيات من القرن العشرين؛ قامت حكومة أنديرا غاندي نتيجة لزيادة عدد السُّكّان إلى نحو خمسمائة مليون نسمة، إلى اتّخاذ إجراءات صارمة أهمُّها معسكرات التّعقيم، ومَن يُحجمون عن ذلك؛ يَكُنْ مصيرُهم الاعتقال والإكراه على الحضور، وكوسيلة إجبارية عملت الشُّرطة على منع بطاقات تموين الطّعام، والعلاج الطّبّيّ، وتصاريح قيادة السّيّارات. وفي إحدى القرى هدّدَت الشُّرطة بإحراق دكّانة أحد المواطنين، ما لم يتقدّم لكي تُجرى له عمليّة التّعقيم اللّازمة رغم أنّ زوجته جاوزت سنّ الحمل! وفي سنة واحدة تمّ تعقيم أكثر من ثمانية ملايين من الهنود. وقامت في أعقاب ذلك احتجاجات عنيفة اضطرّت الحكومة إلى التّخلّي عن المشروع، وظلّ عدد سكّان الهند يزيد بكثافة.[8]

وفي المقابل؛ حدثت معجزة اجتماعيّة في إقليم «كيرالا» الهنديّ دون عنف ولا قهر ولا دعاية، فقد حقّق ما فشلت فيه سائر بقاع الهند.

فعلى الرّغم من أنّ معظم سكّان الإقليم مزارعون، وهذا يشبه من النّاحية الاقتصاديّة والاجتماعيّة معظم مناطق الهند الزّراعيّة، إلّا أنّ عدد السُّكّان مستقرٌّ ولا يتضاعف كثيراً.

والسِّرُّ في ذلك هو «التّعليم» فقد قامت حكومة إقليم كيرالا بمجهود جبّار لمحو الأُمّيّة (القراءة والكتابة والحساب)، وتمّ التّركيز بصفة خاصّة على تعليم النِّساء الّذي كان بمثابة الرّصاصة السِّحريّة الّتي أفرغت

8 - بوكانان، مارك، المرجع السّابق، ص ص 28-29

بالون الهواء المنتفِخ؛ أي: تضخُّم السُّكّان، وفي أوائل التِّسعينيات من القرن الماضي أعلنت الأمم المتَّحدة إقليم كيرالا «الولاية الوحيدة في العالم الَّتي بلغت نسبة المتعلِّمين فيها مئة في المئة».

والنَّتيجة الَّتي نستخلصها أنَّ الحلَّ الاجتماعيَّ والثَّقافيَّ نجح في تحقيق التَّقدُّم والتَّنمية، وفشلَ الحلُّ الأمنيُّ في ضبط المجتمع وحلِّ المشكلات.

ومثال آخَر لِمَا يقوم به العلماء في المجال الاجتماعيِّ يظهر في نظريَّة «الاختيار العقلانيِّ» لعالم الاقتصاد الأمريكيِّ جاري بيكر، فقد أنفق جزءاً كبيراً من دراسته بإثبات رأيه في احتمال عدم كون المجرمين من شواذِّ المجتمع أو المنحرفين أخلاقيًّا، فقد يصبح انتهاك القانون هو الحلَّ والخيارَ الوحيد إذا افتقر الإنسان إلى مهارات يمكنه استثمارها في أعمال مشروعة، وقد حصل بيكر نتيجة لأبحاثه على جائزة نوبل فيما بعد.

ومِمَّا يلفت النَّظر في كتاب «الذَّرَّة الاجتماعيَّة»؛ حديث المؤلِّف عن الموضوعيَّة والانتقائيَّة في التَّاريخ، فالعالم زاخر بتفاصيل لا حصرَ لها ولا عدد، وقدرتنا تكمن في الانتقاء من هذه التَّفاصيل ونظم الأحداث في سياق متَّصل، فالحقائق الَّتي تصلنا من كتب التَّاريخ؛ تنمُّ عن انتقائيَّة أولئك الَّذين كتبوا التَّاريخ! ولعلَّ في الأحداث المعاصرة الَّتي يمرُّ بها العالم ما يوضح تلك الانتقائيَّة والازدواجيَّة في رؤية وكتابة الأحداث من وجهة نظر الأقوياء والمستفيدين.

ومن أهمّ الإشكاليَّات الَّتي تواجهنا عند محاولة وضع قوانين للعالم الاجتماعيِّ: الفروق الفرديَّة، ويشير الكاتب إلى أنَّنا مختلفون بعضنا عن البعض. وهذا يرجع إلى الاختلافات الوراثيَّة بالطَّبع، وكذلك لأنَّ لكلِّ أمرئٍ تاريخاً فريداً بما فيه من خبرات وتجارب.

وكما يقول بوكانان[9]؛ فعلى العلم الإنسانيِّ أن يتعامل، لا مع أفراد يكاد مدى ما فيهم من التَّعقيد يكون لا متناهياً فحسب، بل أيضاً مع عديد من أولئك الأفراد؛ يختلف كلٌّ منهم عن أيٍّ من الآخَرين. في الفيزياء يمكن أن نفترض تماثل جميع الإلكترونات، بينما لا يملك العلماء الاجتماعيُّون هذا التَّرَف!

ولو شئنا الإضافة لِمَا بالكتاب فيمكننا القول بأنَّ القصَّة ليست في الخبرات الاجتماعيَّة بصفة عامَّة، ولكنَّها الثَّقافة الَّتي كما تخلق آلاف الفروق بين البشر؛ فإنَّها تستطيع أن تجمعهم تحت أرضيَّة إنسانيَّة ثقافيَّة مشتركة.

التَّطرُّف والتَّعصُّب والتَّكفير

لو نظرنا في الواقع المعيش للبحث عن أسباب ما وصلنا إليه من صراعات سياسيَّة وفكريَّة بين أفراد الوطن الواحد؛ فلن نجد سبباً رئيساً سوى التَّعصُّب بمختلف أشكاله.

9 - بوكانان، مارك، المرجع السَّابق، ص42.

وتعدُّ علاقة الإنسان بالمقدَّس هي الأخطر على مدار التَّاريخ، فهي محور نظرته للعالم، ومنها تتفرَّع قضايا الخير والشَّرّ، والكفر والإيمان، والثَّواب والعقاب، والطَّهارة والنَّجاسة، وشكَّلَت منذ القدم صراعاً مستمرَّاً بين الدُّنيويّ والدِّينيِّ، فأصبح مَن يعارض المقدَّس؛ يُعارض الشَّريعة الكونيَّة، ومَن يتبع التَّعاليم والأوامر والنَّواهي؛ فمصيره الفردوس الأرضيُّ والسَّماويُّ.

وكلمة التَّعصُّب أخذت من العصبيَّة، وهي أن يدعو الرَّجل إلى نصرة عصبيَّته، والوقوف معها ضدَّ مَن يناوئها، ظالمة كانت أو مظلومة، ومن معانيهما أيضاً -أي: التَّعصُّب والعصبيَّة- المحاماة والمدافعة والنُّصرة، ويكون ذلك على مستوى الأفكار والمشاعر، والأقوال والأفعال.

ويعدُّ نصر حامد أبو زيد واحداً من أبرز مَن خاضوا معركة تجديد الخطاب الدِّينيِّ ضدَّ جماعات الإسلام السِّياسيِّ والتَّطرُّف الدِّينيِّ، لقد وضع أبو زيد يديه على النُّقطة الأساسيَّة للتَّراجع والتَّدهور الَّذي أصابَ أُمَّتَنا العربيَّة الإسلاميَّة، وهي الخطاب الدِّينيُّ، وقال عنه: «إنَّ هذا الخطاب لا يتحمَّل أيَّ خلاف جذريّ، وإن اتَّسعَ صدره لبعض الخلافات الجزئيَّة، وكيف يحتمَّل الاختلاف الجذريَّ، وهو يزعم امتلاكه للحقيقة الشَّاملة المطلقة؟!».

وفي كتابه «هكذا تكلَّم ابن عربي» يؤكِّد أبو زيد أنَّ التَّجربة الصُّوفيَّة في التُّراث الإسلاميِّ -في جانب منها على الأقلِّ- ثورة ضدَّ المؤسَّسة الدِّينيَّة الَّتي حوَّلت الدِّين إلى مؤسَّسة سياسيَّة اجتماعيَّة مهمَّتها الأساسيَّة الحفاظ على الأوضاع السَّائدة، ومساندتها من خلال آليَّات إنتاج معرفيَّة ثابتة يقف على رأسها الإجماع ويليه القياس. وإذا كانت مصادر المعرفة -وهي القرآن الكريم والسُّنَّة النَّبويَّة- مصادر لا خلاف عليها بين المتصوِّفة والفقهاء والمتكلِّمين المسلمين؛ فإنَّ الخلاف بين الاتِّجاهات الثَّلاثة يتمثَّل في ترتيب آليَّات استنباط المعرفة وإنتاجها من هذه المصادر، ففي حين يركِّز المتكلِّمون على أهمِّيَّة العقل -على خلاف بينهم في ترتيب العلاقة بينه وبين النَّقل- يضع الفقهاء العقلَ في درجة أدنى من درجة الإجماع، ولا مجال عند المتكلِّمين والفقهاء للتَّجربة الرُّوحيَّة، وهي محور الخلاف بين المتصوِّفة وغيرهم، إذ يعتبر المتصوِّفة أنَّ التَّجربة الرُّوحيَّة الشَّخصيَّة الذَّاتيَّة هي أساس المعرفة الدِّينيَّة، وفي حين ينشغل المتكلِّمون والفقهاء بقضايا سياسيَّة واجتماعيَّة وينخرطون في إطار إنتاج معرفة مؤسَّسيَّة؛ يلوذ المتصوِّفة بتجاربهم الرُّوحيَّة الَّتي تحاول استعادة تجربة النُّبوَّة ذاتها في إطار تأويليٍّ للشَّريعة النَّبويَّة[10].

وحول مفهوم العودة للدِّين، وأيُّ دين؟! يذكر الكاتب أنَّه في تعريف الدِّين يتمُّ التَّركيز غالباً على مفهوم «النِّظام» أو «النَّسق»؛ أي: على البعد الجمعيِّ للدِّين؛ فيهتمُّ الفلاسفة ورجال اللَّاهوت بمسائل العقائد والوجود بوصفها أنساقاً معرفيَّة أو بوصفها قضايا إيمانيَّة، ويكون تركيز الفقهاء بصفة خاصَّة على الدِّين بوصفه نسقاً من الأوامر والنَّواهي، يتحقَّق بخلاص الإنسان فرداً كان أو جماعة، أمَّا علماء الاجتماع

10 - أبو زيد، نصر حامد، هكذا تكلَّم ابن عربي, الهيئة المصريَّة العامَّة للكتاب، 2003، ص23

والأنثروبولوجي؛ فيهتمُّون بالدِّين بوصفه ظاهرة اجتماعيَّة إنسانيَّة، أمَّا الدِّين بوصفه تجربة روحيَّة ذاتيَّة؛ فهو التَّصوُّر الَّذي يُمثِّل بؤرة اهتمام كلِّ الرُّوحانيِّين في كلِّ الأديان والثَّقافات.

وفي سياق حديث أبو زيد ودفاعه عن ابن عربي؛ يتحدَّث عن مفهوم الكفر عند الشَّيخ الأكبر، وهي نقطة خلافيَّة وأساسيَّة، فيذكر أنَّ الكفر بمعنى عدم الاعتراف بوجود إله للعالم هو شيء لا وجود له عند ابن عربي؛ إذ إنَّ العالم عنده كلُّه من أعلاه إلى أدناه بمستوياته ومراتبه المختلفة من أرواح وعقول وأجسام فلكيَّة وعناصر طبيعيَّة، ليست سوى مظاهر للحقيقة الإلهيَّة، وتكمن القضيَّة في أنَّ كلَّ البشر قد أقرُّوا بالرُّبوبيَّة، ولكنَّ الفارق بين الموحِّد والمُشرِك، يكمن في أنَّ المشرِك أضاف للهِ شريكاً في ربوبيَّته، بينما الموحِّد آمَن بإله واحد لا شريك له، فوفقاً لكلام ابنِ عربي أنَّ أيَّ إنسان لا بُدَّ أن يكون مؤمناً بشيءٍ ما، بقيمةٍ ما، أو بمذهبٍ فكريٍّ ما، وهذا الإيمان بموضوع أو فكرة أو مذهب أو مبدأ ليس في باطنه العميق إلَّا إيماناً بتجلِّي الحقيقة الإلهيَّة.[11]

ومن أهمِّ فصول الكتاب حديث المؤلِّف عن لقاء ابن عربي مع ابن رشد، مِمَّا كان له تأثير كبير عليه، فقد كان ابن رشد صديقاً لأبيه، والتقى به الفتى ابن عربي في ريعان الشَّباب، ويذكر ابن عربي أنَّه دخل بقرطبة على قاضيها ابن رشد، وكان يرغب في لقائِه لِمَا سمعه وبلغَه ما فتح الله عليه به في خلوته، كما يذكر أنَّ آخِر ما شاهده ابن عربي في الأندلس -قبل رحيله النِّهائيِّ الَّذي لم يعد منه أبداً إلى الأندلس- هو جنازة الفيلسوف قاضي قرطبة «ابن رشد» (ت 595هـ)، وبعدها قرَّر ابن عربي الرَّحيل من الأندلس بلا عودة..

ويوضح المؤلِّف في فقرة مهمَّة بالكتاب ما حدث لابن رشد؛ حيث «لم تهدأ سيطرة الفقهاء في عهد الموحِّدين، إذ كان مناخ الصِّراع العسكريّ الدِّينيِّ يدفع بالتَّوتُّر في أفق الحياة الدِّينيَّة والاجتماعيَّة والسِّياسيَّة إلى أقصاه، وفي ظلِّ هذا المناخ المتوتِّر تسيطر عادة نزعة التَّمسُّك بالشَّكليَّات الدِّينيَّة تعبيراً عن مفاهيم الهويَّة في مواجهة التَّهديد بالقضاء عليها من قبل أعداء خارجيِّين يرفعون شعارات دينيَّة بدورهم. نحن نعرف مثلاً أنَّ مأساة ابن رشد ومحنته المعرفيَّة تسبَّب فيها حاجة الخليفة لفرض ضرائب جديدة لتغطية تكاليف الحروب. ولما كان من شأن العامَّة المستضعَفين اجتماعيَّاً واقتصاديَّاً أنْ تُحرِّكَهم مثل هذه الأعباء إلى انتفاضات وثورات، فقد كان الحكَّام دائماً في حاجة إلى الفقهاء والوعَّاظ في المساجد ليمتصُّوا أيَّ احتمال لثورة العامَّة ضدَّ الأعباء الجديدة. ومن المنطقيِّ في مثل هذا السِّياق، أن يكون للفقهاء بدورهم شروط على الحاكم لضبط السُّلوكِ الدِّينيِّ الَّذي غالباً، ما يتَّهمون الفلاسفة والمتكلِّمين والصُّوفيَّة بإفساده»[12].

11 - أبو زيد، نصر حامد، المرجع السابق، ص ص77-78

12 - أبو زيد، نصر حامد، المرجع السابق، ص124

ويعدُّ مشهد لقاء ابن عربي بابن رشد من أهمّ المحطّات الّتي شهدتها العلاقة بين الفلسفة والتّصوُّف، حيث شهدت في كثير من الأحيان فشلاً ذريعاً، ولكن نشهد في هذا اللّقاء تقارباً ملحوظاً وتفهُّماً لمختلف الأطياف الفكريَّة.

ومن الكتب المهمَّة الّتي تتناول ظاهرة التَّطرُّف الدّينيّ؛ كتاب: «تطوُّر مفهوم الجهاد: دراسة في الفكر الإسلاميّ المعاصر» للكاتب والباحث الإسلاميّ محمود محمَّد أحمد.

ويوضح الكاتب في مقدّمته أنَّ دراسة تاريخ المعرفة هو الّذي ينهض باكتشاف التّغييرات الّتي أصابت المفاهيم، حيث إنَّ كثيراً من المفاهيم الدّينيَّة الإسلاميَّة خضعَت لمثل هذه التّطوُّرات، وما زال علينا العمل من أجل اكتشافها؛ ذلك أنَّ تاريخ المعرفة يساعد في إعادة الأمور إلى نصابها كلَّما حدث انحراف عن الأصل الشّرعيّ، ومن الطّبيعيّ أن نتوقّع كثيراً من الأخطاء الجسيمة الّتي تقع باسم الدّين ناتجة عن تغييرات من هذا النّوع أصابت الأحكام والتّصوُّرات التّشريعيَّة من دون ملاحظتها.

ويقوم منهج الكاتب على الاعتماد على النُّصوص المؤسِّسة، القرآن والسُّنَّة النّبويَّة، لاستقصاء الحقائق بعيداً عن التّفسيرات والتّأويلات الّتي جاءت بعدها.

ويذكر الكاتب أنّنا لا نجد ذِكراً لمصطلح الجهاد في الجاهليَّة قبل الإسلام، وقد ذُكر المصطلح ومشتقّاته حوالي (34) مرَّة في القرآن الكريم؛ ما يدلُّ على أنَّه ابتكارٌ قرآنيٌّ، ويدور معنى الجهاد في اللُّغة العربيَّة حول «المشقَّة» وبذل «الطّاقة»، و«التّعب» الّذي يتولّد عنه. والمشقَّة الّتي نتكلّم عنها في باب الجهاد ليست مشقَّة عاديَّة؛ بما يعني أنَّه لا يمكن تحمُّلها بشكل معتاد، بل تحتاج إلى طاقة إضافيَّة، والتّحلّي بما يُسمّيه القرآن الكريم «الصّبر»[13].

وقد ارتبط مفهوم الجهاد في السّياق القرآنيّ كما يوضح الكتاب بعدد من المصطلحات، أبرزها: (في سبيل الله)، وقد ذُكِرَت في القرآن (11) إحدى عشرة مرَّة، ويقصد به أنَّ سبيل الله لا بُدَّ أن يكون مستقيماً، وهو طريق التّوحيد. وقد ربط القرآن بين الجهاد والتّوحيد في آيات عديدة. والمقصود أنَّ الجهاد في سبيل الله هو تحمُّل المشاقّ من أجل إعلاء كلمة التّوحيد.

ويرصد الكاتب أزمة كبيرة حدثت بعد نزول القرآن بفترات بسيطة، وهي اختزال مفهوم الجهاد في شيء واحد فقط وهو «القتال»، وهذا تفسير خاطئ ومتسرّع، ويتمُّ تبريره في كثير من الأحيان من جانب فقهاء العنف.

13 - أحمد، محمود محمَّد، تطوُّر مفهوم الجهاد: دراسة في الفكر الإسلاميّ المعاصر، الشّبكة العربيَّة للأبحاث والنّشر، بيروت، 2015، ص29-39

ويتناول الكتاب الآيات القرآنيَّة الَّتي ورد فيها لفظ الجهاد، فنجد أنَّ هذا المصطلح له معانٍ مختلفة باختلاف السِّياق الَّذي وردَت فيه ومنها: {فَلا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَجاهِدْهُمْ بِهِ جِهاداً كَبِيراً} [الفُرقان: 52]. فالمقصود هنا هو الجهاد بالقرآن بما فيه من القوَّة والسُّلطان والتَّأثير العميق، والبيان الوافي للحقائق والقيم والحِكَم الَّتي يوصل التَّدبُّر فيها إلى التَّوحيد.

وفي آية أُخرى: {وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ} [العَنكبوت: 69]. لا يمكن حمل الجهاد هنا على القتال أيضاً؛ لأنَّ الآية مكِّيَّة، وتتكلَّم عن الجهاد في سبيل الله بمفهومه العامّ. وينطبق نفس الحكم والمعنى على الآية: {وَجاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهادِهِ هُوَ اجْتَباكُمْ وَما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ} [الحَجّ: 78].

أما الآيات الأخرى التي يتم فيها حمل مصطلح الجهاد على القتال، والتي تبدو الأخطر في اعتماد المتطرفين عليها، فأبرزها

{انْفِرُوا خِفافاً وَثِقالاً وَجاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [التّوبَة: 41]، ففيها تظهر ملامح المعارك القتاليَّة وأبرز علاماتها وهي النَّفير.

وهناك آية {إِنَّما يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَارْتابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ} [التّوبَة: 45]، وفيها يتَّضح الفرق بين المجاهد (المقاتل) عن الشخص القاعد الرَّافض للخروج والمتباطئ عن التَّلبية لنداء الجهاد.

ونستنتج من ذلك أن آيات الجهاد لا يُقصَد منها في عمومها أن تكون ذريعة لاستخدام القوَّة إلَّا في حالات يعدُّ فيها القتال لا مفرَّ منه، لا سيَّما وأنَّ الحالة الأساسيَّة الَّتي جعلت الجهاد شرطاً ضروريَّاً عند نزول القرآن هي الدَّعوة الإسلاميَّة وتأسيس الدَّولة الناشئة والصِّراعات مع أصحاب النُّفوذ المادِّيّ والدِّينيّ في المناطق المحيطة بالإسلام، وقد تغيَّر الوضع تماماً الآن مع ظهور فكرة الدُّول المدنيَّة بشكلها الحديث.

السَّلبيَّة:

السَّلبيَّة في الفكر لا تقلُّ عن السَّلبيَّة في العمل، وأقصد هنا رفض إعمال العقل في أيّ موضوع واللُّجوء إلى الأفكار الجاهزة والتِّقنيات السَّهلة بدون تدخُّل فكريّ من الشَّخص لإصلاح أيّ خلل أو مشكلة.

ومثال ذلك مَن يلجؤون إلى ترجمة جوجل google translate عند ترجمة موضوع علميّ مثلاً فيقدِّمون ترجمة حرفيَّة مُملَّة معتمدين على لغة الآلة الجامدة، دون بذل المجهود اللَّائق والرُّجوع للقواميس

المتخصِّصة مثلاً أو حتَّى معالجة عيوب التَّرجمة من خلال الصِّياغة السَّليمة، ومراعاة السِّياق والمعنى والفكرة وحيويَّة الموضوع.

السَّلبيَّة لا تُنتج ثقافة ولا فكراً، ولكن مجرَّد نماذج آليَّة في مجتمع خامل كسول.

وقد كانت الثَّورات العربيَّة بمثابة أمل للشَّباب، الَّذين اعتقد النِّظام أنَّه كان قد كبَّلهم بالقيود، وجعلهم يجلسون بالمنازل أمام شاشات الكمبيوتر بعد أن فقدوا الفرصة في العمل، والزَّواج، والمعيشة الكريمة؛ ليتحوَّل هؤلاء الَّذين وصفوا سابقـــاً بالسَّلبيَّة وإدمان الكمبيوتر إلى ثوَّار أحرار يجعلون الفيس بوك مكاناً للاجتماعات والمؤتمرات والجلسات الَّتي أشعلت الثَّورة، وليُثبتوا للجميع أنَّهم ما زالوا أحياءً، ولم يقتلهم التَّجاهل أو الإهانة من نظام فاسد أغلق كلَّ أبوابه أمام أحلامِهم الزَّاهية وشغلَهم بالمخدِّرات، والجنس، وتفاهات الأمور، والمعارك الوهميَّة.

ولا بُدَّ لنا من نشر الثَّقافة الإيجابيَّة من خلال زرع الثِّقة بالنَّفس لدى الشَّباب المثقَّف وقدرتهم على التَّغيير، وكذلك التَّركيز على نقاط القوَّة ونواحي التَّميُّز والتَّفوُّق الإنسانيِّ في مقابل عوامل الإحباط والاكتئاب المنتشرة، والَّتي تجعل التَّفكير المتجدِّد يواجه صعوبات عديدة.

يجب على النُّخبة والجمهور الثقافيِّ أن يسعى لوجود فعاليات وأنشطة مستمرَّة ومتجدِّدة، ومرتبطة بالمجتمع والبيئة المحيطة حتَّى يشعر الجميع بأهمِّيَّة الثَّقافة في بناء الوطن والمواطن الملتزم.

الخضوع للسُّلطة:

مهمَّة المثقَّف والمفكِّر والأديب والفنَّان الحقيقيَّة هي نقد المجتمع ومحاولته بشتَّى الطُّرق طرح رؤى بديلة للطَّريق السَّائد، وزرع أفكار التَّغيير الحقيقيِّ اللَّازم للعبور لمستقبل أفضل، ولكن هنا لا بُدَّ أن نطرح سؤالاً مهمَّاً، وهو: من ينتقد المثقَّف إذا خرج عن دوره ليصبح أداةً في يد سلطة، أو تيَّار أو مصالح جماعة، أو حتَّى مصالحه الشَّخصيَّة، وينسى أو يتناسى هدفه الأساسيَّ؟!

الخضوع لسُلطة -أيَّ سُلطة- هو تقييد للفكر، ومن ثمَّ فهو ضدّ فكرة الثَّقافة الحقيقيَّة القائمة على حرِّيَّة إعمال العقل والتَّجدُّد المستمرّ.

ويذكر المفكِّر الكبير فؤاد زكريَّا أنَّ الخضوع للسُّلطة أسلوب مريح في حلِّ المشكلات، ولكنَّه أسلوب ينمُّ عن العجز والافتقار إلى الرُّوح الخلَّاقة. ومن هنا، فإنَّ العصور الَّتي كانت السُّلطة فيها هي المرجع الأخير في شؤون العِلم والفكر كانت عصوراً متخلِّفة خَلَتْ من كلِّ إبداع، ومن هنا أيضاً فإنَّ عصور النَّهضة والتَّقدُّم كانت تجد لزاماً عليها أن تحارب السُّلطة العقليَّة السَّائدة بقوَّة، مُمهِّدة الأرضيَّة بذلك للابتكار والتَّجديد.

ويضرب مثالاً مهمًّا في التّاريخ الثّقافي هو شخصيَّة أرسطو؛ فقد ظلَّ هذا الفيلسوف اليونانيُّ الكبير يُمثِّل المصدر الأساسيَّ للمعرفة - في شتَّى نواحيها- طوال العصور الوسطى الأوربيَّة؛ أي: طوال أكثر من ألف وخمسمائة عام، كذلك كانت كثير من قضاياه تؤخَذ بلا مُناقشة في العالم الإسلاميِّ؛ حيث كان يُعدُّ «المعلِّم الأوَّل»، وإن كان بعض العلماء الإسلاميِّين قد تحرَّروا من سلطته في نواحٍ معيَّنة، ولا سيَّما في ميدان العلم التَّجريبيِّ.

وحدَّد زكريَّا أهمَّ عناصر السُّلطة الَّتي تقف حائلاً ثقافيًّا، وهي:

1- القِدَم: فالآراء الموروثة عن الأجداد يُعتقد أنَّ لها قيمة خاصَّة، وأنَّها تفوق الآراء التي يقول بها المُعاصرون.

2- الانتشار: فالرَّأي يكتسب سلطة أكبر إذا كان شائعاً بين النَّاس.

3- الشُّهرة: يَكتسب الرَّأي سلطة كبرى في أذهان النَّاس إذا صدر عن شخص اشتهر بينهم بالخبرة والدِّراسة في ميدانه.

4- الرَّغبة أو التَّمنِّي: يميل النَّاس إلى تصديق ما يرغبون فيه أو ما يتمنَّون أن يحدث، وعلى العكس من ذلك فإنَّهم يحاربون بشدَّة ما يصدم رغباتهم أو يُحبط أمانيهم[14].

وتجدر الإشارة هنا إلى إدوارد سعيد الَّذي كان من أنصار استقلال المثقَّف عن السُّلطة، فقد قال: «إنَّ مهمَّة المثقَّف والمفكِّر تتطلَّب اليقظة والانتباه على الدَّوام، ورفض الانسياق وراء أنصاف الحقائق أو الأفكار الشَّائعة باستمرار. ومن شأن هذا أن يستلزم واقعيَّة مُطَّردة ثابتة، ويستلزم طاقة عقلانيَّة فائقة، وكفاحاً معقَّداً للحفاظ على التَّوازن بين مشكلات الذَّات عند الفرد (في إحدى الكفَّتين)، ومتطلَّبات النَّشر والإفصاح عن الرَّأي علناً (في الكفَّة الأخرى)، وذلك هو الَّذي يجعل منه جهداً دائباً متواصلاً، لا يكتمل قطُّ، ولا بُدَّ أن تعيبه عيوب»[15].

ومن ناحية السُّلطة الدِّينيَّة، فقليلة هي المؤلَّفات الَّتي حاولت اختراق الحواجز الدِّينيَّة والفكريَّة الَّتي أقامها المشايخ والفقهاء على مرِّ العصور لمنع الاجتهاد وإعمال العقل في كلِّ ما يخصُّ الدِّين.

الشَّخصَنة:

لعلَّ أكبر نقد يمكن أن يُوجَّه للمثقَّفين هو لجوء بعضهم للشَّخصَنة عند تناول موضوع معيَّن، أو قضيَّة معيَّنة؛ سواء كانت ثقافيَّة أو مجتمعيَّة.

14 - زكريَّا، فؤاد، التَّفكير العلميُّ، سلسلة عالم المعرفة الكويتيَّة، عدد 3، آذار/مارس 1978، ص65-71

15 - سعيد، إدوارد، المثقَّف والسُّلطة، ترجمة محمَّد عناني، دار رؤية للنَّشر والتَّوزيع، 2006، ص59

ويقصد بالشَّخصنة: التَّفسير أو التَّفكير للأحداث والمواقف والأفعال بشكل شخصيّ، فيترجم أقوال أو أفعال الآخَرين على أنَّها نوع من ردِّ الفعل المباشر والشَّخصيِّ على أفعاله أو سلوكيَّاته، أو أنَّها لخدمة منافع شخصيَّة لهم على حساب المبادئ والقِيَم الصَّحيحة.

والشَّخصنة ضدّ فكرة الثَّقافة في الأساس، فهي مفهوم يقوم على الانغلاق والذَّاتيَّة المفرطة، وعدم الموضوعيَّة في الحكم السَّليم؛ بينما الثَّقافة تدعو للانفتاح والتَّجدُّد وقبول الرَّأي الآخَر، وعدم الرَّبط بين الشَّخص والموضوع المطروح، بما يجعلنا نبتعد عن الهدف الأساسيِّ للعلم والمعرفة.

وتعدُّ الشَّخصنة بوَّابة للتَّعصُّب الفكريّ، ومن ثمَّ الإرهاب النَّفسيِّ؛ ما يخلق أزمات فكريَّة وثقافيَّة عديدة. وللأسف فقد أصاب هذا الفيروس نسبةً لا بأس بها من النُّخب الفكريَّة في العالم، وأسهم في الكثير من الإشكاليَّات المُزمِنَة والممارسات الخاطئة؛ مثل شيوع ثقافة الاتِّهام والتَّشكيك في الكثير من القضايا المهمَّة، والبحث عن الدَّوافع الشَّخصيَّة الخالصة، بدلاً من البحث عن الأسباب العلميَّة والعمليَّة، ومن ثمَّ الوصول لحلول وأطروحات جديدة.

ولعلَّ أبرز النَّتائج المترتِّبة على هذا الأمر؛ تفشِّي نظريَّة المؤامرة الَّتي تملأ مجلَّدات في ثقافتنا الرَّاهنة، وتزداد يوماً بعد يوم دون حلٍّ أو طريق للخلاص الفكريّ.

وتجد نظريَّة المؤامرة البيئة الخصبة في ظلِّ قلَّة الوعي الثَّقافيِّ والتَّخلُّف المعرفيِّ؛ ما يساعد على زيادة الفجوة بين الجمهور والثَّقافة.

وتؤدِّي الشَّخصَنة في أحيان كثيرة إلى ضياع أعظم العقول والخبرات في الدَّائرة الجهنَّميَّة دون ذنب.

التَّربية الثَّقافيَّة الخاطئة:

في كتابه المهمّ: «أسئلة الطُّفولة.. في التَّربية الذَّاتيَّة والثَّقافة الرَّقميَّة والصِّحَّة البدنيَّة والنَّفسيَّة» يذكر العربي بنجلّون: أنَّ الحَجَر الأساس في التَّربية كما يُجْمِع المُرَبُّون وعلماء النَّفس على أنَّ علاقة الآباء بالأبناء، ينبغي أن تتَّسِمَ بالْمَدِّ والْجَزْر؛ أي: بالْحَزم أحياناً واللِّين أحياناً أخرى. فلا يطغى الأوَّل على الثَّاني أو العكس. وفي المثل السَّائر: (لا تكن ليناً فتُعصَر، ولا صُلباً فتُكسَر). وتتخلَّل هاتين الْمعاملتين معاً، الصَّراحةُ والسُّلوك الهادئ والْحوارُ، وإتاحة الفرصة لطرْح وإثارة الْمشاكل والْهموم والأحاسيس، وغيرها من الوسائل التَّربويَّة الإيجابيَّة، الَّتي تشدُّ من ساعد الأبناء، وتعطيهم الثِّقة بالنَّفس والجُرأة والمُبادرة، كما يجب أن نتيح لهم الفرصة لتكوين شخصيَّاتهم بعيداً عن النَّماذج والقوالب الموجودة للشَّخصيَّات[16].

16 - بنجلون، العربي، أسئلة الطُّفولة، دار جليس الزَّمان، عمان، 2014، ص9

وأشار الكاتب إلى قصّة القِسّيس الّذي حاول أن يَجعلَ من ابنه نَموذجاً حيًّا له، فأخذ يشحن نفسه بالقيم الدّينيَّة والْخلقيَّة والوطنيَّة والإنسانيَّة، وينصحه بالْمحبَّة والرِّفق والحنان والإيثار، مثلما يفعل مع كثير من الأولاد اليتامى والمشرَّدين في الملجأ الّذي يؤويهم، ويتولّى القسّيس تربيتهم وتعليمهم وتوجيههم وحمايتهم من الآفات الاجتماعيَّة، والأمراض الجسميَّة والنَّفسيَّة، كالانحرافات والإدمان على الخمور والتَّدخين والمخدِّرات...!

ويوماً ما؛ أُخْبر بأنَّ ابنه معتقَل في مركز الشُّرطة بتهمة السَّرقة والقتل. ولَمَّا قابله، سأله لِماذا فعل ذلك، وهو الَّذي عني بتربيته ورعايته، أجابه بعصبيَّة وتوتُّر:

- أردت أن أختلفَ عنك، فأنت دائماً كنتَ تتجاهـــل شخصيَّتي، وتريدني أن أكون نسخة منك!

أي إنَّه لَمْ يترك له الفرصة ليختار الشَّخصيَّة الملائمة لذاته، فلم يَجد أمامه إلَّا شخصيَّةَ الْمُجرم!

كما ضرب الكاتب مثالاً بالرَّسَّام العالميِّ بابلو بيكاسو pablo ruiz picasso الَّذي قال لأبيه، حين أراد أن يحتذيه في فنِّ الرَّسم: اِسْمَعْ، يا أبي العزيز: «لا توجد بتاتاً في هذا العالم جُمْجُمَتان متشابهتان!»[17].

كذلك يجب علينا تنمية الذَّاكرة الثَّقافيَّة لدى الأطفال، فهي تساعد على مواجهة العديد من المشكلات في حياتهم المستقبليَّة.

ويذكر المؤرِّخ الكبير إريك هوبزباوم eric hobsbawm أنَّ المجتمع في حاجة إلى المؤرِّخين[18]، محترفي الذَّاكرة، الَّذين يقوم وجودهم أساساً على تذكير مواطنيهم بما يتمنَّى هؤلاء نسيانه.

وعلينا الاعتراف أنَّ الثَّقافة التَّاريخيَّة المنتشرة بين النَّاس عادةً ما تتجاهل الأبطال الحقيقيِّين للأحداث والوقائع، بينما تجعل من سماسرة الحروب والانتهازيِّين؛ أصحاب اللَّقطة المتميِّزة والدَّور البارز.

تمجيد الماضي:

عندما نتأمَّل الواقع الحاليَّ في العالم، ونقارن بين أوضاعنا العربيَّة المتدهورة وبين دول العالم الَّتي تشهد تقدُّماً ملحوظاً في احترام الإنسان قبل الازدهار العلميِّ والثَّورة المعرفيَّة والتِّكنولوجيَّة، في حين نظلُّ نحن متمسِّكين بأفكار متخلفة ليس لها عائد إلَّا تراجع مستمرٍّ، ومن هنا أهمِّيَّة تطبيق سنن الحياة والواقع والحاجة البشريَّة في تطوُّرها لتلائم وتواكب مجريات الحياة المعاصرة والسَّريعة والجديدة.

17 - بنجلون، العربي، المرجع السَّابق، ص10

18 - هوبزباوم، إريك، عصر التطرفات: القرن العشرون الوجيز 1991-1914، المنظمة العربية للترجمة، فايز الصُيّاغ، بيروت، 2011، ص ص41 -42

تغييرات عديدة حدثت بالعالم العربيِّ منذ مطلع القرن التَّاسع عشر، فقد كانت الصَّدمة الحضاريَّة الَّتي حدثت بقدوم الحملة الفرنسيَّة بتأثيرها الكبير على المصريِّين، فنبَّهتهم إلى أنَّ العلم قد تقدَّم كثيراً بعد القرنين السَّابع والثَّامن الميلاديِّ؛ كان بالحملة مجموعة من العلماء في شتَّى مجالات العِلم في ذلك الوقت، أكثر من (150) مائة وخمسين عالماً وأكثر من (2000) ألفي متخصِّص من خيرة الفنَّانين والرَّسَّامين والتِّقنيِّين، وعلى الرَّغم من قصر مدَّة الحملة، وعدم استطاعتها إنجاز أهدافها؛ إلَّا أنَّ حجراً كان قد تمَّ إلقاؤه في المياه الرَّاكدة.

ثمَّ كانت الصَّدمة الثَّانية مع بدء موجة البعثات للخارج في عصر أسرة محمَّد علي، ثمَّ بناء وتأسيس تعليم وطني تمثَّل في المدارس والجامعات لبناء دولة مدنيَّة وعصريَّة.

وزادت موجة الوطنيَّة الخالصة مع ثورة 1919 ومبادئها الَّتي انتصرت لمبادئ الحرِّيَّة والعدل، وقد كانت تلك الفترة فاتحة خير لظهور الرُّوَّاد في الفكر المصريِّ الحديث ودعاة تمصير الجامعة أمثال: طه حسين، مصطفى مشرفة، حسين فوزي، مراد كامل، نجيب محفوظ، سليم حسن، عبد الرَّازق السَّنهوري، يوسف مراد، محمَّد مندور، لويس عوض، عبد الرَّحمن بدوي، عبد الحليم منتصر، محمَّد كامل حسين، وغيرهم كثيرون من المبدعين الكبار.

وخلال القرن العشرين، ونتيجة للتَّعليم والثَّقافة، حدث صدام لكثير من المفكِّرين مع المتدَيِّنين المتشدِّدين بسبب محاولتهم تجديد الخطاب الدِّينيِّ، أو إيجاد خطاب عصريٍّ بديل، ومن هنا حاول البعض إيجاد طريق ثالث يقوم على فكرة التَّديُّن العقلانيِّ للخروج من النَّفق المظلِم.

أزمات ومشكلات عديدة تظهر عند كلِّ محاولة فرديَّة لتجديد الخطاب الدِّينيِّ، وعادةً ما تنتهي تلك المحاولة الفرديَّة إمَّا بالتَّشهير، أو التَّكفير، أو القتل باسم الدِّفاع عن الدِّين. وتظهر هنا قضيَّة مهمَّة، وهي احتكار المؤسَّسات الدِّينيَّة والجهاديَّة للدِّين واعتبار أنَّ (الأنا) أو (المفتي بالرَّأي) هو الخصم والحكم في كلِّ شيء، وتصبح جموع الشَّعب ليس عليها إلَّا الطَّاعة العمياء المجرَّدَة من أحكام العقل والمنطق والتَّفكير.

ويُنبِّهنا ذلك إلى أنَّ محاولات تجديد الفكر الدِّينيِّ جاءت كنتيجة حتميَّة لتدخُّل علماء الدِّين في كثير من أمور الحياة والواقع بطريقة (الحلال) و(الحرام)، وإخضاع العلم والفكر والأدب للدِّين دون مراعاة للتَّطوُّر والتَّجدُّد المستمرِّ، أصبح الدِّين في جهة، والعقل في جهة أُخرى، وفشلت الكثير من محاولات التَّقريب بينهما نتيجة سيطرة المقدَّس على الإنسانيِّ في التَّأويل والتَّفسير.

ثقافة الاستهلاك:

يعاني مجتمعنا المصريُّ والعربيُّ من الوقوع في فخِّ الأفكار المستهلكة والقديمة واستسهال الحلول السَّطحيَّة، دون البحث عن حلول جذريَّة خارج الصُّندوق. وعلى الرَّغم من شيوع الوسائط الإلكترونيَّة

الاجتماعيَّة؛ إلَّا أنَّنا نفتقد ثقافة المبادرة وتبنِّي فكرة جديدة أو رؤية مختلفة لشخصٍ ما لمواجهة أسلوب أو طريقة أو مشكلة أو قصور في أحد مناحي الحياة.

فمثلاً عالم الموضة والأزياء عالم مثير، ويسيطر على عقول كثيرين من النَّاس، بل إنَّ كثيراً من الأمور الاجتماعيَّة لا يمكن ممارستها بشكل طبيعيٍّ بدون مراعاة اللَّياقة في اختيار الملابس والإكسسوارات المناسبة. ولو دخلتَ أحد متاجر العرب الكبرى؛ ستجد العديد من الماركات العالميَّة الَّتي يتهافت الجميع من أجل الحصول على منتجاتها الغالية الثَّمن حتَّى في أوقات التَّخفيضات السَّنويَّة، وهناك مقولة شهيرة تقول إنَّ الماركات العالميَّة هي: «أكبر كذبة تسويقيَّة صنعها الأذكياء لسرقة الأثرياء فصدَّقَها الفقراء»، وبذلك تصبح أكبر مؤامرة على المستهلك، وثقافته، وأفكاره، وأذواقه.

وينبغي أن نذكر أنَّ نشر ثقافة الإنتاج والعمل يساعد على الخروج من المأزق الحاليِّ، فمثلاً في عهد الرَّئيس الرَّاحل جمال عبد النَّاصر، شهدت مصر تطوُّراً صناعيَّاً كبيراً، وتمَّ تأسيس عدد من الشَّركات الَّتي تنافس الشَّركات العالميَّة، مثل شركة كيما للأسمدة، ومصانع إطارات السَّيَّارات الكاوتشوك، ومصانع عربات السِّكَك الحديديَّة سيماف، ومصانع الكابلات الكهربائيَّة، كما تمَّ بناء مجمع مصانع الألمونيوم في نجع حمادي، وشركة النَّصر للسَّيَّارات، وشركات الغزل والنَّسيج.

وكانت المحلَّات المصريَّة تعرض وتبيع منتجات مصريَّة من مأكولات وملابس وأثاث وأجهزة كهربيَّة، وكان الرَّئيس عبد النَّاصر يفخر أنَّه يرتدي بدل وقمصان غزل المحلَّة، ويستخدم الأجهزة الكهربائيَّة المصريَّة إيديال.

تضخُّم البيانات:

نحن نعيش في ظلِّ الثَّقافة الرَّقميَّة كلَّ يوم، وتستحوذ مواقع التَّواصل الاجتماعيِّ على عقول وقلوب الملايين، لدرجة أنَّ معظم الأجيال الشَّابَّة الَّتي تستخدم تلك الوسائط السَّهلة لا تتخيَّل كيف كان يعيش آباؤهم وأجدادهم قبل تلك الثَّقافة الإلكترونيَّة الحديثة.

منذ فترة طويلة قرَّرتُ أن أُحدِّد لنفسي مشروعاً ثقافيَّاً مميِّزاً، ووجدتُ ضالَّتي في (الثَّقافة الرَّقميَّة)، وعلى الرَّغم من المحاولات الجادَّة من الرُّوَّاد الكبار في هذا المجال، إلَّا أنَّني وجدتُ مع كثرة المنشورات المتناثرة حول الموضوع هناك ضآلة في المعرفة، ولأنَّ المجال تزداد أهمِّيَّته يوماً بعد آخَر؛ فقد حاولت في معظم مؤلَّفاتي نشر الوعي بأهمِّيَّة الثَّقافة الرَّقميَّة ودورها في حياتنا المعاصرة، والثَّقافة الرَّقميَّة ليست رفاهية لكونها المحيط الَّذي نعيش بداخله بفضل تكنولوجيا المعلومات والاتِّصالات.

ومنذ فترة دخلتُ في نقاش مع أحد أصدقائنا المعترضين على مصطلح الثَّقافة الرَّقميَّة، وكان لا بُدَّ من توضيح الغموض والارتباك حوله، وهو غموض لا يقلُّ عن الأزمة الَّتي يحملها مصطلح الثَّقافة وحدَه. فمنذ خمسين سنة كتب عميد الأدب العربيِّ طه حسين: (ثقافة هي كلمة نُردِّدها كلَّ يوم فيما نقول وما نكتب. وقليل منَّا يُحقِّقها في ذهنه، ويستطيع أن يعرب إعراباً صحيحاً دقيقاً عن معناها؛ شأنها في ذلك شأن ألفاظ كثيرة تنطق بها الألسنة وتجري بها الأقلام، وليس لها في نفوس الَّذين ينطقون بها معنى واضح أو صورة، لا أقول دقيقة بل مقاربة)[19].

ولأنَّ العالم من حولنا لا يتوقَّف كثيراً مثلنا أمام الإشكاليَّات المفاهيميَّة؛ فقد انطلق الباحثون في مجال الثَّقافة الرَّقميَّة ليبدعوا وينتجوا أفكاراً مهمَّة لوضع الرَّقميَّة ضمن سياق الثَّقافات الإنسانيَّة.

فيذكر المفكِّر الكبير ميلاد دويهي أحد أهمِّ المتخصِّصين في هذا المجال، وأستاذ كرسيِّ الثَّقافات الرَّقميَّة بجامعة لافال (كيبك) في كتابه المهمّ: (من أجل ثقافة إنسانيَّة رقميَّة pour un humanisme numérique) أنَّنا بصدد ثقافة إنسانيَّة رابعة تُشكِّل حصيلة التَّقارب بين التُّراث الثَّقافيِّ المعقَّد، والتِّقنية الَّتي أصبحت الآن ملتقىً لكلِّ البشر في صورة لم تحدث من قبل، فالتِّكنولوجيا الرَّقميَّة لا تُغيِّر فقط السُّلوك بل كلَّ البيئة الثَّقافيَّة المحيطة.

كما هدم لوتشيانو فلوريدي، وهو من أبرز الباحثين في الفلسفة المعاصرة وعلاقتها بتكنولوجيا المعلومات في كتابه: «الثَّورة الرَّابعة.. كيف يعيد الغلاف المعلوماتيُّ تشكيل الواقع الإنسانيِّ the fourth revolution how the infosphere is reshaping human reality»- نشرته سلسلة عالم المعرفة الكويتيَّة بترجمة: لؤي عبد المجيد السَّيِّد في عدد أيلول/سبتمبر 2017 - الكثير من النَّظريَّات الرَّاسخة في تكنولوجيا المعلومات، وأهمُّها أنَّنا نعيش في عالمين: افتراضيّ على الشَّبكات الاجتماعيَّة، وآخَر واقعيّ ملموس في حياتنا العاديَّة، فيشير الكاتب إلى أنَّ البشر جميعاً الآن مؤهَّلون للحياة بالفعل داخل الغلاف المعلوماتيِّ (الأنفوسفير)، وهو ما يظهر في مختلف مناحي الحياة.

ويذكر فلوريدي أنَّ تكنولوجيَّات المعلومات والاتِّصالات تدخل تعديلات على طبيعة الواقع ذاته، ومن ثمَّ على مفهومنا له، عبر تحويله إلى إنفوسفير (غلاف معلوماتي)، والإنفوسفير هو تعبير جديد، ابتُدع في السَّبعينيَّات، يستند هذا التَّعبير إلى مصطلح (biosphere الغلاف الحيويّ) ويشير إلى تلك المنطقة المحدودة على كوكبنا الَّتي تسمح بالحياة، يدلُّ الإنفوسفير على أنَّ البيئة المعلوماتيَّة برُمَّتها تتألَّف من جميع الكيانات المعلوماتيَّة، وخصائصها، وتفاعلاتها، وعمليَّاتها، وعلاقاتها المتبادلة. إنَّها بيئة تضاهي، لكن تختلف عن الفضاء السِّيبرانيِّ (الفضاء الإلكترونيِّ) الَّذي لا يتجاوز كونه إحدى مناطقها الفرعيَّة -إن جاز التَّعبير- الإنفوسفير يشمل أيضاً فضاءات المعلومات غير المتَّصلة، ويمكن استخدام مفهوم الإنفوسفير كمرادف

19 - حسين، طه، ثقافة، مجلة المجلة، القاهرة، عدد 7، تموز/يوليو 1957، ص3

للواقع، حالما نُفسِّر الواقع معلوماتيًّا، في هذه الحالة الإيحاء هو أنَّ ما هو حقيقيٌّ هو معلوماتيٌّ، وما هو معلوماتيٌّ هو حقيقيٌّ![20]

وقد أشار مارسيلو داسكال بإحدى مقالاته المهمَّة عن الثَّقافة الرَّقميَّة إلى أنَّ خُطى التَّطوُّر التِّقنيِّ أصبحت سريعة بشكل يفوق خطى التَّطوُّر الثَّقافيِّ الَّذي كان بدوره أسرع من التَّطوُّر البيولوجيِّ، وتنتج المستجدَّات والتَّطوُّرات في مجال التِّكنولوجيا من الحشد الهائل للإبداع أو القدرة الإنسانيَّة على التَّجديد في سبيل البحث عن المكاسب والفوائد. ولا يستطيع أحد أن يتحكَّم في الاتِّجاه الَّذي يسلكه التَّطوُّر التِّكنولوجيُّ؛ لأنَّه هو الَّذي يوجِّهنا.[21]

وفي المقابل هناك تأثيرات سلبيَّة لمواقع التَّواصل الاجتماعيِّ، فقد لفت نظري أثناء مشاهدة الفيديو البشع الَّذي وثَّق به الإرهابيُّ جريمتَه بالهجوم على مسجدين في نيوزيلندا خلال شهر آذار/مارس 2019، ما أدَّى لسقوط (49) تسعة وأربعين بريئاً، ومطالبة الجاني للشَّباب بالاشتراك في قناة على «يوتيوب» كنوع من الدِّعاية، والتَّرويج، والتَّسويق الإلكترونيِّ.

وبصفتي متخصِّص في مجال السوشيال ميديا، كان لا بُدَّ أن أتوقَّف لأتأمَّل هذا العمل الَّذي يبدو غريباً على كثيرين، ولكنَّه نتيجة منطقيَّة للمخاطر الَّتي أنتجتها مواقع التَّواصل الاجتماعيِّ الَّتي تمَّ تركها لسنوات طويلة بدون دعوات للإصلاح الفكريِّ؛ لتصبح بمثابة قنوات لتفريخ إرهابيِّين بهذه البشاعة والفظاعة.

لقد أصبحت ثقافة الصُّورة مسيطِرة على العقول حتَّى في القتل والتَّدمير؛ ليصبح منقولاً على الهواء مباشرة دون أدنى مشاعر أو أحاسيس إنسانيَّة.

لقد أصبح القاتل في العصر الرَّقميِّ يسمع موسيقى على الإنترنت، ويقوم بالدِّعاية لصفحته وقناته على «يوتيوب» أثناء عمليَّة القتل بحثاً عن ضغطات الإعجاب والتَّعليقات الكثيرة والأرباح من المتابعة في مشهد يدعو للأسى والحيرة في آنٍ واحد، ونتيجة ذلك على مصير الجنس البشريِّ.

لم تعد الفيروسات والدِّيدان المتطفِّلة الموجودة ببرامج الكمبيوتر تُدمِّر الأجهزة فقط، ولكنَّنا الآن نواجه فيروسات التَّطرُّف والإرهاب الرَّقميِّ نحو كلِّ ما هو إنسانيٌّ.

لا بُدَّ مِن وقفة وتحرُّك إيجابيٍّ، وتكمن البداية في رأيي في الحلول الثَّقافيَّة، فالحلول الأمنيَّة بدون مشاركة اجتماعيَّة وبمضمون ثقافيٍّ، تظلُّ عاجزة عن اكتشاف أماكن الخلل والفساد الفكريِّ الَّذي ينتشر بسهولة عبر تلك المنصَّات الإلكترونيَّة.

---

20 - فلوريدي، لوتشيانو، الثورة الرَّابعة، ترجمة: لؤي عبد المجيد، سلسلة عالم المعرفة الكويتيَّة، العدد 452، 2017، ص67

21 - سيّد ريَّان، محمَّد، من تقنية الثقافة إلى ثقافة التقنية، مجلة الهلال، القاهرة، عدد 1518، آب/أغسطس 2019، ص143

فعلى الرَّغم من النُّموّ الكبير في أعداد مستخدمِي الإنترنت في مصر والعالم العربيِّ؛ إلَّا أنَّ هذا النُّموَّ لا يعادله أيُّ نموٍّ فكريٍّ أو ثقافيٍّ ملحوظ، ففي بلد مثل مصر يقترب فيه عدد المستخدمين للشَّبكة الدُّوليَّة نحو نصف عدد سكَّانه على الأقلِّ -وفقاً للتَّقديرات الدُّوليَّة- لكنَّ معظم استخدامات الإنترنت تنحصر في التَّصفُّح والتَّعليق، دون أيِّ استغلال أو إنتاج يذكر، أو محاولة الاستفادة من التَّجارب الدُّوليَّة في هذا المجال، فنحن أمام تضخُّم في الاستهلاك وضآلة في الإنتاج.

ومن هنا يجب الاهتمام بالسِّياسات الثَّقافيَّة الجديدة وقضيَّة المحتوى على الإنترنت؛ خاصَّةً وأنَّ عدم وجود محتوى جيِّد أو حتَّى وجود محتوى هلاميٍّ غير ناضج؛ شيءٌ سيعود بنتيجة سيِّئة على الجيل الجديد، فعلى الرَّغم من أهمِّيَّة الشَّبكات الاجتماعيَّة والإخباريَّة، إلَّا أنَّها بدون صياغة جيِّدة وثقافة تقوم على أسس وأخلاقيَّات المجتمعات تصبح ترسيخاً لقِيَم مادِّيَّة لا تفسح مجالاً للإنسان أو قيمه أو طموحاته أو مستقبله الشَّخصيِّ والمهنيِّ.

الوعي الزَّائف:

الصِّراع بين العِلم الحقيقيِّ والمزيَّف صراع قديم ومستمرٌّ، ويُعبِّر عن صراعات بين مؤسَّسات وأفراد للحفاظ على علاقات ومصالح قائمة، ودائماً ما ينساق الكثيرون وراء أشخاص ودجَّالين مُزيِّفين للحقائق، وناشرين للأكاذيب المضلِّلة بأغلفة تبدو علميَّة ومنطقيَّة.

لن يتقدَّم العالم إلَّا بالعلم والمعرفة، ولعلَّ أبرز تعريفات المنهج العلميِّ تكمن في أنَّه عبارة عن مجموعة من التِّقنيات والطُّرق المصمَّمة لفحص الظَّواهر والمعارف المكتشفة أو المراقبة حديثاً، أو لتصحيح وإكمال معلومات أو نظريَّات قديمة. أمَّا الخيال العلميُّ، فيتضمَّن التَّصوُّرات أو الافتراضات العلميَّة الَّتي يعتقد القائلين بها أنَّها ستحدث في المستقبل القريب أو البعيد.

وقد يشكِّل الخيال العلميُّ حافزاً للعِلم والتَّطوُّر والتَّقدُّم في شتَّى مجالات المعرفة الإنسانيَّة، وكثير من الاكتشافات العلميَّة بدأت خيالاً، ثمَّ أصبحت حقيقة تؤكِّده وتؤسِّس عليه، كما استفاد منه العالم أدبيَّاً، ويتمثَّل ذلك في مجموعة من أعظم الرِّوايات الخلَّابة، فقد كانت كتب السِّحر والخيال وأشكال التَّعبير عنها أحد أهمّ المؤثِّرات في الإبداع الإنسانيِّ، ويزداد الاهتمام بتلك الكتب مع زيادة ارتباطها بالمخيِّلة الشَّعبيَّة والتُّراث الدَّارج بين النَّاس.

والفطرة الإنسانيَّة مع الخيال بحثاً عن شبابيك للأمل والحياة، وأنَّ الإنسان يستطيع، وقادر على تحقيق أحلامه أمام موجات اليأس والإحباط في الواقع.

ولكن هناك نوع آخَر من الخيال يتميَّز بأنَّه (لا علمي) وما هو إلَّا أوهام وخُزعبلات لها غلاف خارجيٌّ يبدو علميًّا، وعلى عكس الخيال العلميِّ الَّذي استفاد منه العالم أدبيًّا وعلميًّا، يأتي الخيال اللَّا علميُّ الَّذي نشأ على أكتافه العلم المزيَّف كأحد أهمِّ العقبات في طريق العِلم وتعطيل مسيرة التَّقدُّم والتَّنوير الإنسانيِّ.

ويحكي كتاب الطَّفرات العلميَّة الزَّائفة لتشارلز وين charles m. wynn وآرثر ويجنز arthur w. wiggins، قصَّة مُفزعة حدثت في أوائل نيسان/أبريل من عام 1997، حين صُعق الجميع لمعرفة أنَّ مجموعة مكوَّنة من (39) تسعة وثلاثين شخصاً أقدموا على أكبر عمليَّة انتحار جماعيٍّ في تاريخ الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة؛ وذلك في مسكنهم المشترك في رانشو سانتا بولاية كاليفورنيا، ابتلع هؤلاء الأشخاص جرعات قاتلة من المهدِّئات المخلوطة بعصير التُّفَّاح، وأتبعوها برشفة من الفودكا، ثمَّ وضعوا على رؤوسهم أكياساً بلاستيكيَّة للتَّعجيل بالوفاة، وذلك كلُّه بعد أن ارتدوا سراويل سوداء، وقمصاناً سوداء فضفاضة، وأحذية رياضيَّة سوداء جديدة ماركة نايك، ثمَّ غطُّوا وجوههم بقطع من القماش الأرجوانيِّ. سأل الجميع: لماذا قرَّرت مجموعة من الأشخاص الأذكياء، الَّذين يملكون مهارات مربحة، ويعيشون في عيشة رغدة بمنطقة راقية؛ الانتحار؟ فعلوا ذلك لأنَّهم كانوا مقتنعين بأنَّهم بقتل أنفسهم سيتخلَّصون من أجسادهم الأرضيَّة، ومن ثمَّ ينتقلون في خفَّة مع القادمين من كواكب أُخرى إلى سفينتهم الفضائيَّة، وبالتَّالي إلى مستوى أرقى من الوجود؛ لكن من سوء حظِّهم أنَّ هذا الاعتقاد كان مبنيًّا على عِلم زائف؛ اعتقاد نظروا إليه على سبيل الخطأ بأنَّه اعتقاد علميٌّ[22].

والسَّبب في ذلك رجل يُدعى مارشال هيرف أبلوايت، تقبَّل هؤلاء الأشخاص الَّذين كانوا يطلقون على أنفسهم زملاء الدِّراسة بصورة عمياء تعاليمَ شخص كانت أفكاره المتأصِّلة عن الكون خاطئة بالكامل، أقنعَهم أبلوايت بوجود سفينة فضاء عملاقة يُزعم أنَّها تتبع مذنَّباً اسمه هالي/بوب- مذنَّب من أوضح المذنَّبات الَّتي ظهرت في القرن العشرين، وكان المفترض أن تأخذهم هذه السَّفينة الفضائيَّة إلى مُستقرِّهم الأخير في الجنَّة.

كما يشير الكتاب إلى نقطة مهمَّة، وهي أنَّه قد تكون فرضيَّات العلم الزَّائف جذَّابة بدرجة كبيرة إذا خاطبت الاحتياجات العاطفيَّة، مثل الرَّغبة في الحصول على إجابات سهلة وفوريَّة، والحاجة للشُّعور باليقين، والنَّهم الرُّوحيِّ، والهموم الصِّحِّيَّة، والاشتياق إلى الحياة في العالم الآخَر، مثل هذه التَّفسيرات تُبنى غالباً على نظم عقائديَّة تتطلَّب الإيمان بقوى أو سلطة لا دليل على وجودها، ومن ثمَّ تطلب من المؤمنين بها التَّخلِّي عن الفرضيَّات العلميَّة المثبتة.

ويُبيّن المؤلِّفان أنَّه حين لا تتوافق نتائج تجارب العلم الزَّائف مع التَّنبُّؤات؛ يظلُّ أتباع هذا العلم الزَّائف على تعلُّقهم بالمعتقد الأصليِّ بسبب جاذبيَّته الشَّديدة، ومن شأن ذلك التَّمسُّك الأعمى أن يغلق العقل تماماً أمام أيِّ محاولة للتَّنوير وزرع الأفكار العلميَّة السَّليمة.

22 - (وين) تشارلز، (ويجنز) آرثر، الطَّفرات العلمية الزائفة، ترجمة: محمَّد فتحي خضر، دار كلمات عربية، 2011، ص10

ولعلَّ ذلك يذكرنا بثنائيَّة أنيس منصور (الَّذين هبطوا من السَّماء - الَّذين عادوا إلى السَّماء)، فقد كانت هذه الكتب مثالاً مهمًّا لتأثير الفكر الخرافيِّ على العقل العربيِّ لتفسير الكثير من الظَّواهر العلميَّة، وقد لاقت تلك المجموعة انتشاراً كبيراً بين القرَّاء والمثقَّفين.

كان أنيس منصور يتحدَّث بقشرة علميَّة تبدو وكأنَّها حقائق، فيذكر أنَّ الإنسان ليس هو الكائن العاقل الوحيد في هذا الكون، وهناك كائنات أعقل وأذكى تعيش على كواكب أخرى كثيرة، وهو يؤكِّد أنَّ هذه الكائنات الأعقل والأذكى قد جاءت إلى الأرض، عاشت وأقامت وعلَّمَت الإنسان وحذَّرته، ثمَّ اختفت. ولكن بعد أن تركت آثارها وأبرزها الأهرامات المصريَّة.

المعركة قديمة ومتجدِّدة بين العلم الحقيقيِّ والعلم الزَّائف، وستظلُّ قائمة، ولن يتحقَّق التَّقدُّم إلَّا بالاستنارة والتَّفكير السَّليم.

التَّنظير الزَّائد والتَّرفيه الزَّائد:

تأتي كلمة «التَّنظير» من النَّظريَّات، والمقصود به هو وضع أو عرض النَّظريَّات للعمل على وضع فكرة أو خطَّة.

وبالتَّأكيد، فإنَّ التَّنظير مطلوب ولا يقلُّ أهمِّيَّة عن التَّطبيق العمليِّ، ولكن في أحيان كثيرة نعاني من التَّنظير الزَّائد في أمور هي بلا شكٍّ تحتاج لتحرُّك فعليٍّ وسريع، وحلول عمليَّة وأكثر واقعيَّة من المعاني المجرَّدة.

وفي أحيان كثيرة، يلجأ المفكِّرون الَّذين تحتاجهم شعوبهم في الإشكاليَّات والقضايا الحاسمة للتَّنظير المطلق دون محاولة للتَّبسيط والوصول للعامَّة بطُرق مُيسَّرة وسهلة.

ومشكلة المنظِّرين أنَّهم غالباً يختارون القول لا الفعل؛ ما يترتَّب عليه أن يعيش الكاتب والمفكِّر في برج عاجيٍّ، وكذلك شعور النَّاس بعدم جدوى اللُّجوء لهم أو أنَّهم في عالم مختلف عنهم.

ويجب على العلماء والمفكِّرين أن يعملوا على تقليل الفارق بينهم وبين الجماهير من أجل إيجاد جدوى لفكرهم وعلمهم، وإلَّا فلن يشعر النَّاس بهم أبداً.

وعلى عكس التَّنظير يأتي التَّرفيه الزَّائد، ونلاحظ ذلك كثيراً في عصرنا الحاليِّ من خلال لجوء بعضهم إلى أنشطة ترفيهيَّة كثيرة كمحاولة منهم لإقناع النَّاس بجدوى الثَّقافة وأهمِّيَّتها؛ ما يجعل الموضوع أشبه بكوميديا سوداء غير مفيدة، بل بالعكس تضرُّ بالمعاني الثَّقافيَّة والفنِّيَّة الرَّاقية.

التَّمسُّك بالرَّأي وفشل صناعة القرار:

ترجع سمة التَّمسُّك بالرَّأي في جذورها إلى الاستبداد والظُّلم، وهو سمة من أهمّ سمات المجتمعات الشَّرقيَّة، يتَّحد فيها الحاكم المستبدُّ مع فقهاء السُّلطان مع أصحاب رؤوس الأموال الفاسدة مع المنتفعِين والمنافقين، وهنا نتساءل متى بدأ الاستبداد؟ وهو السُّؤال الَّذي يجيب عليه كتاب: «جذور الاستبداد» للدكتور عبد الغفار مكَّاوي، والصَّادر عن سلسلة عالم المعرفة الكويتيَّة.

يشير الدُّكتور مكَّاوي إلى نقطة مهمَّة، وهي أنَّه إذا كان «الحُبُّ» هو غاية سعي الإنسان في الغرب، «فالعدل» هو مطلب الإنسان الشَّرقيّ ومنتهى أمله، وإذا نحن قلنا «الحُبُّ» فقد أشرنا ضمناً إلى البذرة الَّتي غرسها شعب الإغريق العجيب في تربة الحضارة الغربيَّة، فنمت شجرتها وأزهرت، وأثمرت حرّيَّة وفكراً عقليَّاً وعلماً منهجيَّاً وشغفاً بالمعرفة لذات المعرفة، وقلقاً دائماً، ومغامرة لا تهدأ ولا تتوقَّف عن البحث عن الحقيقة. أمَّا إذا قلنا «العدل» فقد وضعنا أيدينا على أصل الشَّقاء المتجدِّد في نشدان الأمل البعيد، ولمسنا جذور الشَّجرة اللَّعينة الَّتي لم نزل في الشَّرق نبلو المرَّ من ثمرها منذ آلاف السِّنين؛ قهر الحاكم للمحكوم وخوف المحكوم من الحاكم، غدر بعضنا ببعض، وتسلُّط بعضنا على بعض، حلمنا الأزليُّ بالحقّ، وفشلنا في التَّوصُّل إلى «حقّنا» في حياة كريمة أو سويَّة تليق بالإنسان، ولا أقول حياة حرَّة أو مبدعة..![23]

الشَّائعات والأكاذيب:

أكاذيب وشائعات عديدة تنتشر عبر وسائل الإعلام في مجالات الاقتصاد والسِّياسة والثَّقافة والعلوم، وتنتقل للعامَّة ويُصدِّقونها، ثمَّ تصبح بفعل الانتشار حقائق تؤثِّر على مسارات التَّنمية والتَّفكير العقلانيّ في العديد من دول العالم، ويحاول كتاب حقائق وأخطاء وأكاذيب السِّياسة والاقتصاد في عالم متغيِّر؛ من تأليف ججيجوش كوودكو grzegorz w. kolodko؛ وضع الحلول وإيجاد المخرج من أزمات العالم الاقتصاديَّة والسِّياسيَّة والثَّقافيَّة.

ويوضح الكاتب أنَّ النِّقاش العلنيَّ وأداته -أي: وسائل الإعلام- سلاح ذو حدَّين، فمن ناحية يستحيل من دونهما تمرير شعلة المعرفة إلى جمهور أوسع من النَّاس، ومن ناحية أُخرى، يمكِّنان الكذَّابين والدَّهْماء من الوصول إلى ذلك الجمهور نفسه واستخدام الأسلحة المختلفة والكلمات الخارجة أحياناً لإثبات الرَّأي.

ويشير الكاتب إلى الأزمة الَّتي تحدث عند العلماء حين يكون لديهم قناعات، بما فيها قناعات سياسيَّة؛ فهم أوَّلاً وأخيراً مواطنون، ويستخدمون العلم كسلاح سياسيّ انطلاقاً من دوافع أيديولوجيَّة، وما هو أسوأ؛ عندما يستخدمهم آخَرون لأداء مهمَّة الانحياز نظيرَ أجر. أمَّا الأكثر سوءاً على الإطلاق؛ فهو أن يسمح العلماء لأنفسهم أن يُستدرجوا إلى دوَّامة الصِّراعات السِّياسيَّة غير المنتهية.

23 - مكَّاوي، عبد الغفَّار، جذور الاستبداد، سلسلة عالم المعرفة الكويتيَّة، العدد 192، 1994، ص58

ويمكن أن يحدث الضَّغط في الاتِّجاه العكسيِّ، فباستخدام وسائل الإعلام العامَّة، الَّتي بات من غير الممكن أن يتحقَّق أيُّ شيء من دونها في الوقت الحاضر، تتمكَّن السِّياسة من زعزعة العمليَّة العلميَّة عن طريق الهجوم على العلماء غير المتحيِّزين والسَّاعين فقط وراء الوصول للحقيقة، عندما يتبيَّن أنَّ اكتشافات هؤلاء العلماء ونظريَّاتهم قد تضرُّ بجماعات المصالح[24].

وفي عصر مليء بتأثير وسائل الاتِّصال الاجتماعيِّ على مختلف مناحي الحياة البشريَّة؛ حاولَت العديد من الدِّراسات الاهتمام بعلاقة التَّأثير والتَّأثُّر بين التِّقنية والثَّقافة، وبعيداً عن الدِّراسات التَّقليديَّة والنَّمطيَّة الَّتي تُركِّز في أغلبها على دور أدوات تكنولوجيا المعلومات والاتِّصالات في تطوير الأداء الثَّقافيِّ، فالأهمُّ من وجهة نظري في ضوء النَّظريَّات الحديثة هو الإسهام الَّذي ساهمت به تلك الوسائل في إنتاج أشكال جديدة من الإبداع الأدبيِّ والفكريِّ الرَّقميِّ، وفي المقابل فقد بذل العلماء والمخترعون جهداً كبيراً في جعل الكمبيوتر يقوم بالكثير من وظائف الإنسان بكفاءة، فهل تنجح العمليَّة العكسيَّة بجعل الإنسان كالحاسب الآليِّ تحكمه قوانين صارمة وأنظمة وبرمجيَّات توجِّه تفكيره وسلوكه وتحكم تصرُّفاته؟!

الثَّقافة الرَّقميَّة لها سمات عديدة أبرزها نشر المعلومات، والتَّطبيقات، والموادِّ النَّصِّيَّة والسَّمعيَّة والبصريَّة على شبكة الإنترنت؛ ومن هنا تأتي فكرة الانتشار السَّريع والفعَّال لتلك التَّطبيقات على نطاق واسع بما يُحقِّق ثراء المعرفة البشريَّة والثَّقافة الإنسانيَّة. كما أنَّ مواقع التَّواصل الاجتماعيِّ والثَّقافي تساعد على إنتاج وسائل ووسائط تسهِّل وصول الرِّسالة الثَّقافيَّة، وتُحسِّن من صياغتها وأدواتها والقائمين عليها، وتقوم بإضافة منتجين ومبدعين جدد عن طريق سهولة التَّعامل مع أدواته، وتتغلَّب على العوامل الجغرافيَّة والاقتصاديَّة الَّتي غالباً ما تحول دون ذلك.

وثقافة الصُّورة الرَّقميَّة هي بمثابة تطوُّر طبيعيٍّ للثَّقافة البشريَّة، والَّتي تفرض سنن الحياة والواقع، والحاجة البشريَّة تطوّرها لتلائم وتواكب مجريات الحياة المعاصرة والسَّريعة والجديدة، فعصرنا هو عصر تكنولوجيا المعلومات الحديثة وأدوارها في مختلف مناحي الحياة، ورأيي إن كان يمكن تخصيص سمة العصر أكثر من ذلك؛ لأطلقنا على العصر «عصر الصُّور الرَّقميَّة» الَّتي أضافت أبعاداً عديدة في الرُّؤية والتَّفسير للظَّواهر المختلفة.

وتعتبر الصُّور المزيَّفة واستخدامها ضمن الأخبار المضلِّلة أحد أهمِّ ملامح الخطاب الإعلاميِّ والثَّقافيِّ على مواقع التَّواصل الاجتماعيِّ والوسائط الإلكترونيَّة، وربَّما يعود ذلك لأنَّ الإنترنت هو بيئة مفتوحة وغير محكومة بضوابط أخلاقيَّة، فيستغلُّ البعض ذلك في النَّفاذ إلى الجماهير الإلكترونيَّة العريضة، ومن ثمَّ إثارة الغرائز وتشجيع الخلافات بين الأفراد والجماعات، ومحاولة هدم المجتمعات والدُّول؛ سواء كان ذلك موجَّهاً بدافع شخصيٍّ، أو رغبة مجموعة معادية.

24 - كوودكو، ججيجوش، حقائق وأخطاء وأكاذيب، ترجمة: رحاب صلاح، دار كلمات عربيَّة للتَّرجمة والنَّشر، 2012، ص ص21-22

وفي عصر الكره والقبح الَّذي نعيشه حاليًّا تختفي قِيَم الجمال والحبِّ بين النَّاس، ونفتقد قبول الآخَر والتَّعامل بأخلاقيَّات الحوار واحترام الاختلافات في الفكر والرَّأي، ونجد أغلب العامَّة ضحايا للتَّعميم الخاطئ وغياب الرُّؤية.

وقد صدرت مئات الأبحاث والدِّراسات العديدة، وعقدت عشرات اللِّقاءات والمؤتمرات والنَّدوات والمناقشات وصدرت قرارات عديدة من جهات رسميَّة ومناشدات من جهات غير رسميَّة، ومنظَّمات، وجمعيَّات، ومراكز بحثيَّة من أجل معرفة كيفيَّة مواجهة تلك الظَّاهرة الَّتي تُهدِّد الجميع.

غير أنَّ معظم تلك الجهود ركَّزت في أغلبها على الجوانب التِّقنيَّة والتَّطبيقيَّة في الموضوع، أو على الجوانب النَّفسيَّة أو الاجتماعيَّة في وضع حلول سهلة للأنشطة الإلكترونيَّة لمستخدمي مواقع التَّواصل الاجتماعيِّ؛ ولم ينتبه كثيرون إلى بُعدٍ مهمّ وغائب دائماً، وهو الجانب الثَّقافيُّ وخاصَّة أن أحد أهمّ مصادر انتشار الأخبار الكاذبة تتمُّ عن طريق استخدام الصُّورة الَّتي هي أحد المنتجات الثَّقافيَّة على مدار التَّاريخ البشريّ.

الباحثون في مجال الشَّبكات والاتِّصالات ذكروا أنَّ مجموع المعرفة البشريَّة قديماً كان يتضاعف كلَّ قرنين على الأقلِّ، كما تضاعف بين عامي 1750-1900 ثمَّ تضاعف مرَّة ثانية بين عامي 1900-1950 ثمَّ تضاعف بين عامي 1950-1960 ثمَّ تضاعف بين عامي 1960-1965، وحاليًّا كلَّ شهرين تقريباً، ومستقبليًّا كلَّ بضع ساعات لا أكثر. ولكن لم يسأل معظم هؤلاء الباحثين أنفسهم باعتبار أنَّ جانباً كبيراً من تلك المعرفة الَّتي يتمُّ نقلها من جيل إلى جيل ربَّما تحتوي على قليل من الصِّدق، وكثير من الكذب والخداع!

ولا يمكن نفي القصديَّة كأحد أهمِّ الأسباب في نشر الأخبار الكاذبة، ولعلَّ ذلك يذكِّرنا بما قاله الفيلسوف الاجتماعيُّ الشَّهير جان جاك روسو: «أن تكذب لمصلحة نفسِك؛ فهذا مستحيل، وأن تكذب لمصلحة الغير؛ فهذا تدليس، وأن تكذب قصدَ إلحاق الأذى بالغير؛ فهذا افتراء، وهذا هو أسوأ أصناف الكذب»[25].

وقد أشار موقع first draft news - يعتبر أحد أهمِّ المواقع الَّتي تسعى لتقصِّي وكشف الحقائق- إلى أنَّه يمكن اكتشاف سبعة مصادر للخبر الكاذب، وهي: السُّخرية، وانتحال الشَّخصيَّات، والرَّبط الخاطئ، والمضمون الخاطئ، والمضمون المضلِّل، والتَّلاعب بالألفاظ، والصُّور والتَّلفيق.

وترتبط الأخبار والصُّوَر المزيَّفة أيضاً بالإشاعات الإلكترونيَّة، وهناك أنواع عديدة للإشاعة الإلكترونيَّة، فمنها إشاعة الخَوف والذُّعر، ومنها إشاعة نشر عقيدة معيَّنة، ومنها إشاعة الاستطلاع الَّتي تسعى لرصد التَّأثُّرات والرُّدود، وأشهرها إشاعة التَّضليل؛ لأنَّها ترتبط بنفسيَّات ودوافع فرديَّة وجماعيَّة متنوِّعة.

25 - دريدا، جاك، تاريخ الكذب، ترجمة رشيد بازي، المركز الثقافي العربي، بيروت، 2016، ص ص 19-20

وباستخدام المنهج الثّقافيّ الّذي نعتقد أنّه الأجدر بحلّ تلك الإشكاليّة؛ يمكن وضع مجموعة معايير لكشف كذب الأخبار المضلّلة الّتي تنتشر عن طريق الصُّور، أوّلاً- من خلال ملاحظة التّفاصيل الموجودة في الخبر وهل هي ملائمة للقصّة الّتي يتمُّ التّرويج لها أم لا، وثانياً- من خلال بيان التّرابط بين أجزاء القصّة الخبريّة وتناسقها وجدّيّتها، وثالثاً- من خلال الانتباه إلى لغة الجسد وطبيعة الحوار ومدى مناسبته، ورابعاً- من خلال الخلفيّة ومكان الأحداث ومدى ملائمته، وخامساً- وهو الأهمُّ، هو الثّقة بالحدس وإعمال التّفكير النّاقد القائم على كشف التّلاعب بالعقول.

تظهر أهمّيّة قراءة الصُّورة إذا تذكّرنا ما جاء في المثل الصّينيّ: (الصُّورة تساوي ألف كلمة)، فقراءة الصُّورة قد توصل لك رسائل عديدة، وقد تنقلك إلى مكان الحدث والصّراعات، وتُعَدُّ بمثابة تسجيل وكادر فيلميّ قصير يمكن فيه تلمُّس ملامح ماضٍ بعيد، أو حاضر مليءٍ بالوقائع، أو قد ترسم ملامح خياليّة لمستقبل قادم مترقَب.

وقراءة الصورة تساعد على تنمية القدرات الإبداعيّة والفكريّة للأفراد من خلال اكتشاف العلاقات الغير مرئيّة بالصُّور، وربط الأفكار والأشخاص والأماكن ببعضها البعض، وتكوين الصُّور الذّهنيّة المقابلة للصُّورة البصريّة.

ونحن نحتاج إلى تعلُّم مهارات قراءة الصُّور وتفسيرها، واستنتاج تأثيراتها، ومن ثمَّ الدّلالات الجماليّة والاجتماعيّة والنّفسيّة والتّربويّة والسّياسيّة على مسار الأفراد والمجتمعات، والاستفادة منها في التّنشئة الفكريّة والاجتماعيّة والنّفسيّة والسّياسيّة والثّقافيّة.

وتذكر دراسات عديدة تربويّة ونفسيّة أهمّيّة وضرورة تعويد النّشء على قراءة الصُّورة للقضاء على الأُمّيّة البصريّة؛ لزيادة قدرتهم على الاتّصال والتّواصل مع الآخَرين خلال المواقف والمشكلات المختلفة، وفهم المتغيّرات من حوله.

ولعلَّ المواجهات الفرديّة والمجتمعيّة هي الحلقة الأهمُّ أمام مخاطر الشّائعات الإلكترونيّة، وينبغي أن تهدف المبادرات، سواء كانت تطوُّعيّة أو مدعومة من جهات حكوميّة أو خاصّة في هذا المجال، لترسيخ فكرة الوحدة في ظلّ التّنوُّع بين شرائح المجتمع المختلفة، ونشر المفاهيم والأسس الدّاعمة لممارسات الانتماء والولاء الوطنيّ، كما تسعى إلى بثّ روح المسؤوليّة الفرديّة والالتزام بالواجبات الوطنيّة.

ضياع الهويّة:

الهويّة الوطنيّة لأيّ شعب أو بلد هي التّاريخ المشترك واللُّغة والثّقافة والأمل في مستقبل أفضل في ظلّ الوطن، كما أنّ الهويّة والتُّراث والأصول الحضاريّة هي حائط الصّدّ الأخير ضدّ طغيان موجات العولمة

الثَّقافيَّة، ومحاولات الاختراق الثَّقافيِّ والفكريِّ وصعود نجم ما يُسمَّى بالمواطن العالميِّ، في مقابل المواطن الملتزم بثقافة مجتمعه وقيمه وتاريخه.

تشير الأفكار الحديثة إلى أنَّ الهويَّة في معناها العامِّ برغم اختلاف التَّوصيفات هي خصوصيَّة الفرد أو المجتمع عن أفراد أو مجتمعات أُخرى؛ من حيث القيم والمعتقدات والموروثات والتُّراث، حيث يصبح للمجتمع أو الأُمَّة ما يميِّزها عن غيرها، ويطبعها بطابع حضاريٍّ خاصٍّ تُعرَف به.

وتعدُّ قضيَّة الهويَّة الثَّقافيَّة مع اللُّغة المستخدمَة عبر المنصَّات الإلكترونيَّة مثالاً مهمّاً، ويظهر ذلك في البيئة الاجتماعيَّة الافتراضيَّة الَّتي تضمُّ عامَّة النَّاس؛ يتعارفون ويتحاورون ويتناقشون في مختلف المسائل والقضايا الشَّخصيَّة والاجتماعيَّة والسِّياسيَّة وغيرها؛ ما يشغل النَّاس عموماً، ولا شكَّ أنَّ إمكانيَّات الفيس بوك وخصوصاً إنشاء الصَّفحات وخدمات الرَّسائل والدَّردشة، كذلك وضع التَّعليقات وضغطات الإعجاب يوميًّا بين الأصدقاء والمعجبين بكثافة كبيرة، وتسارع الأخبار والتَّحديثات؛ ساعد على استخدام اللُّغة الدَّارجة واللَّهجات العامِّيَّة والألفاظ المستحدَثة الَّتي تعتبر أسهل وأكثر تعبيراً عن حيويَّة الحوار، وتساعد على التَّفاعل الإنسانيِّ عبر الإنترنت.

فاللُّغة العامِّيَّة المصريَّة من أكثر اللُّغات الَّتي تعدُّ مقياساً معاصراً، وتتأثَّر بالبيئة المحيطة ومستحدثات العصر، ولعلَّ تاريخها منذ الفتح العربيِّ ومروراً بالعصور التَّاريخيَّة اللَّاحقة يوضح التَّطوُّر الكبير لتلك اللُّغة؛ الأمر الَّذي جعل الباحثين في اللُّغات واللَّهجات الدَّارجة يتحدَّثون عن «عامِّيَّات»، وليس عامِّيَّة واحدة.

أمَّا لغة الإنترنت أو ما يُطلق عليها بعضهم عامِّيَّة الإنترنت؛ فهي اللُّغة الدَّارجة الشَّائعة بين مستخدمي الإنترنت، وتضمُّ في الكثير من الحالات ألفاظاً مُستحدثة، عادةً ما تنشأ هذه الألفاظ بهدف توفير النَّقرات على لوحة المفاتيح. والكثير من النَّاس يستخدم نفس الاختصارات في إرسال الرَّسائل القصيرة والتَّراسل الفوري، وتستخدم الكلمات المجمَّعة من بوادئها، ورموز لوحة المفاتيح عادةً كوسائل للاختصار في عامِّيَّة الإنترنت ومثال ذلك قد تستبدل الحروف بأرقام إذا كانت تشبهها في الشَّكل.

وفي أحيان كثيرة يلجأ مستخدمو المواقع الإلكترونيَّة إلى نوع آخَر من أدوات التَّعبير، وهو الصُّور الَّتي ارتبطت في نشأتها، وانتشارها بمواقع التَّواصل الاجتماعيِّ، وهي الصُّور التَّعبيريَّة emotion، الَّتي تشغل جزءاً كبيراً من حواراتنا على شبكات التَّواصل الاجتماعيِّ.

ولذلك يجب التَّأكيد أنَّ الحلَّ التِّكنولوجيَّ المدعوم بالفكر المتجدِّد والمرتكِز على هويَّتنا الأصيلة، هو وسيلتنا في مواجهة الأخطار والتَّحدِّيات الحاليَّة والمستقبليَّة، فلا بُدَّ من الاستفادة من الأساليب التِّكنولوجيَّة والشَّبكات الاجتماعيَّة كوسيلة للرَّبط والوحدة في ظلِّ التَّنوُّع، فأمامنا فرصة ذهبيَّة، وهي تواجد الشَّباب بصورة كبيرة على الإنترنت، وهم طاقة يمكن استغلالها بصورة جيِّدة ليُشكِّلوا حائطَ صدٍّ ضدَّ كلِّ محاولات

التَّشتيت والتَّفرقة بعيداً عن قضايا الأُمَّة الحقيقة والمصيريَّة، وحين نستطيع تجاوز تلك الخلافات؛ نستطيع تحقيق القوَّة الحضاريَّة للعرب.

تزييف المشاعر:

استطاعت تكنولوجيا الاتِّصالات والمعلومات أن تلعبَ دوراً كبيراً في جذب قطاعات وشرائح مختلفة إلى استخدام أدوات الإنترنت والشَّبكات الاجتماعيَّة، وعلى رأسها الفيس بوك، في التَّواصل الاجتماعيِّ الَّذي ما لبث أن تحوَّل من مجرَّد تواصل بين أفراد العائلة والأقارب والأصدقاء المقرَّبين، إلى المعجبين والمهتمِّين بصفة عامَّة، إلى حياة افتراضيَّة كاملة، يتوفَّر بها مشاعر ما بين الحُبِّ، والكراهية، والأمان، والاستقرار، والاضطراب، والانفصال، والضَّياع.

أصبح الفيس بوك هو المتنفَّس الوحيد للكثيرين للبوَح بمشاعرهم، وكتابة خواطر عاطفيَّة، وخصوصاً النِّساء؛ الَّذين كانوا ولفترة طويلة يعانون في المجتمعات العربيَّة من التَّقاليد، وعدم القدرة على التَّعبير عن مشاعرهم.

وعلى الرَّغم من أنَّ الشَّبكات الاجتماعيَّة لها مميِّزات عديدة في النَّواحي السِّياسيَّة والثَّقافيَّة والاقتصاديَّة؛ إلَّا أنَّ تأثيراتها الاجتماعيَّة ما زالت محلَّ جدل كبير، ولم يحسم بعد مدى نجاح فرص الارتباط العاطفيِّ والزَّواج على الإنترنت، وما إلى ذلك من حياة كاملة بين طرفين يمارسون الحُبَّ عبر الشَّبكة العنكبوتيَّة.

وهناك مشاكل عديدة أمام قصص الحُبِّ على الإنترنت يجب الانتباه إليها، أهمُّها؛ أنَّ البيئة الافتراضيَّة غالباً ما تكون مُزيَّفة، فالشَّخص الَّذي تبدو صفحتُه على مواقع التَّواصل الاجتماعيِّ مُبهِرة، ويبدو نشيطاً ومنجِزاً ومتفوِّقاً في كثير من الأمور؛ غالباً لا تبدو حياته الواقعيَّة شبيهة بذلك، بل على العكس، فكثرة اهتمامه واندماجه بالإنترنت سيحوِّله في أحيان كثيرة إلى شخص كسول غير مُنتِج، وهذا النَّوع من الشَّخصيَّات لا يمكن الاعتماد عليه في بناء حياة أُسريَّة سليمة.

الشَّيء الآخَر هو قلَّة خبرة أحد الطَّرفين باحتياطات الخصوصيَّة بالنِّسبة للصُّور والبيانات والتَّعليقات والرُّدود؛ ليجدَ نفسه وقد وقعَت بياناته في يد شخصٍ آخَر يستغلُّها للتَّأثير عليه؛ خصوصاً مع التِّقنيات الحديثة، وإمكانيَّات التَّلاعب في الصُّور الرَّقميَّة. ويجب الحرص في إعطاء بيانات مثل أرقام الهاتف، وبيانات السَّكن، ومحلِّ الإقامة، والوضع المادِّيِّ والوظيفيِّ والشَّخصيِّ والاجتماعيِّ.

الأخطر من كلِّ ذلك هو أنَّ الطَّرفين، برغم خوض التَّجربة العاطفيَّة، يفتقد كلٌّ منهما المصداقيَّة لدى الطَّرف الآخَر؛ نظراً لعدم وجود رؤية واقعيَّة ومواقف جدِّيَّة. ولفتَ نظري مشكلة عرضَها أحد الشَّباب على أحد المواقع الاجتماعيَّة لحلِّ المشاكل عندما قال: «منذ ستَّة أشهر تقريباً تعرَّفتُ على فتاة عن طريق

الإنترنت، كنَّا في بداية الأمر نتحدَّث في مواضيع اعتياديَّة، وعن العادات والتَّقاليد المختلفة في بلدَينا، حتَّى تطوَّر الأمر، وأصبحنا نتحدَّث عن أمور الحُبِّ وما شابه، فتعلَّقْتُ بها، وهي تعلقَتْ بي أكثر. لفترة من الفترات بدأتُ أفكِّر في اتِّخاذها كزوجة، وبدأنا نتغزَّل في بعض، ومن هذه الأمور، وما شابه، أنا لم أرَها قطُّ، ولكنَّها بعثت لي بعض صورها، وبالرغم من تعلُّقي بها؛ فإنَّني دائماً ما أحسُّ أنَّها غير صادقة معي في كلِّ ما تُخْبرني به!». غالباً ما تنتهي تلك العلاقات بصدمات عاطفيَّة شديدة لكلا الطَّرفين وتُسبِّب تأثيراً نفسيَّاً واجتماعيَّاً شديداً.

تبقى نقطة في غاية الأهمِّيَّة ينشغل بها حاليَّاً الباحثون في مجال الوسائط الاجتماعيَّة كفيس بوك وتويتر وإنستجرام ويوتيوب وغيرها، النُّقطة الأولى هي موضوع السُّمعة الإلكترونيَّة، فالسُّمعة موضوع مهمٌّ جدَّاً لكلِّ الأشخاص، وتزداد الخطورة على الإنترنت، ولا سيَّما في ظلِّ الإشاعات الإلكترونيَّة، وهو ما يفرض عليك استخدام التَّطبيقات الَّتي تساعدك في الحصول على ما يشير إلى اسمِك على الإنترنت، مثل خدمة إنذار الأخبار من جوجل.

ومن الملفت للنَّظر أنَّ الفيس بوك بدأ ينتبه لذلك، وخصوصاً أزمة الصَّدمات العاطفيَّة وفقدان شريك الحُبِّ الافتراضيِّ، حيث تناقلت وكالات الأنباء والمواقع الإخباريَّة منذ أيَّام قلائل خبراً عن قيام شركة فيس بوك بالبدء في تجارب على سلسلة أدوات اختياريَّة تتيح لمستخدمِي شبكتها الحدَّ من التَّفاعل مع شركائهم السَّابقين في حال الانفصال العاطفيِّ إثر انتهاء العلاقة بينهما. وأشارت الشَّركة في رسالة عبر مدوَّنتها الرَّسميَّة، إلى أنَّ الأدوات الجديدة ستسمح بـ «الحدِّ من رؤية الاسم أو الصُّورة الشَّخصيَّة للشَّريك السَّابق على فيس بوك من دون الحاجة إلى إلغاء الصَّداقة معه أو حظره، حيث بات في إمكان المستخدمين أن يختاروا الحدَّ من ظهور المنشورات الخاصَّة بشركائهم السَّابقين، أو مواصلة متابعتها. كما يمكنهم اتِّخاذ قرارات عمَّا إذا كانوا يريدون حجبَ صورهم الشَّخصيَّة وتسجيلاتهم المصوَّرة، وتحديثات بياناتهم عن شركائهم السَّابقين. كذلك تتيح خاصِّيَّة ثالثة التَّحكُّم بالإعدادات المتعلِّقة بمنشورات سابقة بما يسمح على سبيل المثال بإلغاء الإشارات الموضوعة في صور سابقة للثُّنائيِّ».

قضايا عديدة تثيرها ثقافة العلاقات العاطفيَّة على الإنترنت، ولا بُدَّ من الانتباه جيِّداً حتَّى لا يحدث ما لا تُحمَد عواقبه.

2- فيروسات الثّقافة الرّقميّة:

يعدُّ موضوع الحماية والأمان الرّقميّ أحدَ أبرز الموضوعات الّتي تهمُّ المستخدمين العاديّين للإنترنت قبل المتخصّصين في مجالات تكنولوجيا المعلومات، والإعلام الإلكترونيّ، ودراسة الشّبكات الاجتماعيّة، بالإضافة للنّاشطين الإلكترونيّين والفاعلين الاجتماعيّين، الّذين يتّخذون من الإنترنت فضاءً للحرّيّة وملتقى للآراء المختلفة يتجاوز الحدود والأماكن الثّابتة.

ويجب عمل الاحتياطات الضّروريّة للأمان الرّقميّ ضدَّ الاختراق والتّدمير، والتّجسُّس والاحتيال الإلكترونيّ، ويجب أن يتمَّ ذلك وفقَ منطقٍ مهمّ وهو ما لا يُدرَك جُلُّه لا يُترَك كلُّه، فإنَّ وجود بعض الشّوائب والأفكار غير الصّالحة على بعض المنصّات الإلكترونيّة لا يمكن اعتباره دليلاً ضدَّ المجال كلِّه، ولكنَّ الفيصل في ذلك هو المستخدم الواعي أوّلاً.

وفي عصرنا الحاليّ المليء بالتّطبيقات الرّقميّة، ودور الوسائط الإلكترونيّة والمعرفة المتجدّدة كلَّ لحظة؛ عادةً ما نجد أزمة كبيرة في المصطلحات المتداوَلة، والّتي عادة ما يتغيَّر أغلبها نتيجة ظهور أدوات جديدة، أو التّركيز على مصطلح بعينه لأغراض إعلاميّة، أو لشيوعه بين النُّخبة والجماهير عند الحديث عن قضيّة بعينها.

الحروب الإلكترونيّة والسّيبرانيّة:

يشير مفهوم الحروب الإلكترونيّة إلى مواجهة الدُّول في القرن الحادي والعشرين، لبروز شكل جديد من الحروب الّتي تختلف في الوسائل والأساليب وحتّى النّتائج، عن الحروب العسكريّة؛ وهي الحروب الإلكترونيّة الّتي تتمُّ في فضاء واسع جدًّا يخترق الحدود الجغرافيّة بسرعة وسهولة؛ بالاعتماد في ذلك على تكنولوجيا المعلومات والاتّصال بوصفها أسلحة إلكترونيّة لإلحاق الأضرار بالخصم[26].

أمّا الحروب السّيبرانيّة، فهو مصطلح منتشر حاليًّا لنوع من الحروب يستخدم «برمجيّات خبيثة تستهدف الإضرار أو تدمير مرافق تكنولوجيا المعلومات بما في ذلك شبكات الكمبيوتر ومكوّناتها أو تدمير أنظمة تعتمد عليها».

وهناك تعريف آخَر للحروب السّيبرانيّة بأنّها: «وسائل أو طرق قتالية يتمُّ من خلالها اختراق الأنظمة الإلكترونيّة لدولة ما، بهدف تدميرها أو تعطيلها، وما يتسبَّب عنه من قتل أو جرح لأشخاص وتعطيل كلّيٍّ أو جزئيٍّ لمنشآت وأهداف عسكريّة»[27].

26 - هادي، سهيلة، الحروب الإلكترونيّة في عصر المعلومات، رؤى استراتيجية، الإمارات، مجلد 4 عدد 14، 2017، ص145

27 - يونس، بسمة، الحروب السّيبرانيّة وأثرها في التّنظيم الدُّوليّ، مجلّة العلوم والدّراسات الإنسانيّة، جامعة بنغازي، عدد 49، شباط/فبراير 2018، ص5

ويرتبط ذلك بما قاله بيتر سينجر في مفهومه عن الحروب المستقبليَّة من[28] أنَّها «تشكيلة متنوّعة من الرُّوبوتات من حيث الحجمُ والتَّصميم والقدرات الاستقلاليَّة والذَّكاء، وتَبَنِّي الخطط والاستراتيجيَّات والتَّكتيكات في تلك الصِّراعات على عقائد جديدة؛ هي الآن في طور التَّكوُّن، وقد تُمثِّل القوَّات الَّتي تخوض تلك الحروب حكومات أو مجموعات غير حكوميَّة على السَّواء، وربَّما أناساً مهووسين يملكون قدرات على الفتك كانت من قبل في أيدي الدُّول، وفي تلك المعارك؛ ستضطلع الآلات بأدوار أكبر، لا في تنفيذ المهمَّات فحسب، بل في التَّخطيط أيضاً».

وفي رأيي فإنَّ الحديث عن مثل تلك النَّوعيَّة من الحروب الَّتي تُشير لِمَا يُسمِّيه مفكِّرو الغرب «حرب الرُّوبوتات» أو «حروب الآلات» لا ينفي وجود العقل البشريِّ المدبِّر، والَّذي قد يُخفي وراءه أهدافاً عقائديَّة أو أسباب سياسيَّة واقتصاديَّة واجتماعيَّة وثقافيَّة.

تعريف الأمن السِّيبرانيِّ:

على الرَّغم من تعدُّد التَّعريفات والمفاهيم لمصطلح الأمن السِّيبرانيِّ؛ إلَّا أنَّني سأركِّز على تعريفات الهيئات الوطنيَّة للأمن السِّيبرانيِّ، وأبرز تلك التَّعريفات؛ أنَّه: (مجموع الوسائل التِّقنيَّة والتَّنظيميَّة والإداريَّة الَّتي يتمُّ استخدامها لمنع الاستخدام غير المُصرَّح به، وسوء الاستغلال واستعادة المعلومات الإلكترونيَّة ونظم الاتِّصالات والمعلومات الَّتي تحتويها).

كما يشير تعريف آخَر إلى أنَّه (يشمل أمن المعلومات على أجهزة وشبكات الحاسب الآليِّ، بما في ذلك العمليَّات والآليَّات الَّتي يتمُّ من خلالها حماية معدَّات الحاسب الآليِّ والمعلومات والخدمات من أيِّ تدخُّل غير مقصود أو غير مُصرَّح به أو تغيير أو إتلاف قد يحدث).

ويضيف أحد تلك التَّعريفات إلى أنَّ من أهمِّ مهام الأمن السِّيبرانيِّ احتواء أيِّ ضرر محتمل قد ينشأ نتيجة الحوادث السِّيبرانيَّة؛ وذلك بغرض مساعدة الجهات والأفراد على الاستجابة الملائمة للحوادث من خلال الإبلاغ عنها في الوقت المناسب، وتوفير التَّحليل والاستراتيجيَّات الفعَّالة للحدِّ من وقوع الحوادث.

مكوِّنات التَّعريف (الهرم السِّيبرانيُّ):

من خلال التَّعريفات السَّابقة نجد أنَّ الأمن السِّيبرانيَّ له درجات ومكوِّنات مهمَّة حسب الاستخدام، وقد أطلقتُ على ذلك اسمَ هرم الأمن السِّيبرانيِّ، ويمرُّ بعدَّة مراحل أو مستويات كالتَّالي:

- المستوى الأوَّل: (إتاحة الوصول إلى المعلومات)، ويعني ذلك من منظور أمن المعلومات **منع أو فلترة عرض المعلومات الملوَّثة والضَّارَّة على الشَّبكة من المنبع؛ أي: قبل نشرها من البداية، وهذا**

28 - سينجر، بيتر، الحرب عن بُعد، مركز الإمارات للدِّراسات والبحوث الاستراتيجيَّة، 2010، ص680

يستحيل تطبيقه عمليًّا؛ نظراً لأنَّ الإنترنت عالم ليس له حواجز أو قانون يحكمه، فكلُّ شيء مباح وجائز نشره وعرضه على الشَّبكة.

- المستوى الثَّاني: (الحفاظ على المعلومات)، ويتمُّ ذلك بواسطة أمن المعلومات من خلال عمل الاحتياطات الضَّروريَّة لحماية المعلومات المهمَّة والقَيِّمة، والخدمات الأساسيَّة من الهجمات الإلكترونيَّة.

- **المستوى الثَّالث: (السِّرِّيَّة)**، ويكون ذلك في مجال أمن المعلومات **بالنِّسبة للمعلومات الهامَّة جدًّا كالحسابات البنكيَّة والمستندات الخاصَّة بالجهات السِّياديَّة، ويُقصد بها اتِّخاذ إجراءات وتدابير لمحاولة السَّيطرة عليها وفق أنظمة مُشدَّدة وقويَّة، وهذا ما تنشده العديد من الدُّول وتسعى إلى تحقيقه في الوقت الحاليِّ.**

أمن المعلومات (المصادر - الهجمات - الدِّفاع - الوقاية):

يعتبر موضوع أمن المعلومات من القضايا المهمَّة الَّتي تشغل الجميع حتَّى الشَّخص الجالس وحيداً مع جهاز الكمبيوتر أو الجوَّال الخاصِّ به، فالموضوع لا يمكن تركه لرجال السِّياسة أو الأمن وحدهم، أو متخصِّصي تكنولوجيا المعلومات فقط، بل لا بُدَّ من المشاركة والوعي الكامل بالقضيَّة.

- مصادر الأخطار الإلكترونيَّة:

ويمكن تقسيمها إلى نوعين أساسيَّين:

1- المصادر غير المادِّيَّة: المتمثِّلة في البرامج والتَّطبيقات الضَّارَّة مثل: الفيروسات وبرامج الاختراق، وأدوات التَّصيُّد الإلكترونيِّ.

2- المصادر المادِّيَّة: وتشمل الأجهزة الَّتي تحتوي على رقائق إلكترونيَّة، أو كاميرات تجسُّس، أو غير ذلك مِمَّا يعدُّ شيئاً ملموساً ومحسوساً.

- الهجمات:

ويمكن تقسيمها إلى قسمين أساسيَّين:

1- هجمات مباشرة: من خلال تنفيذ هجوم على المدى القصير لإيقاف أو عرقلة نشاط إلكترونيٍّ أو تدميره.

2- هجمات غير مباشرة: من خلال استنزاف المعلومات الخاصَّة بالضَّحيَّة الإلكترونيَّة لفترات طويلة، وعادة ما يكون الغرض الأساسيُّ هو التَّجسُّس الإلكترونيَّ أو الاحتيال الإلكترونيَّ.

- الدِّفاع:

ويمكن ذلك عن طريق التَّحكُّم في مزوِّد خدمة الإنترنت، أو إنشاء جدران الحماية، وتنزيل مضادٍّ للفيروسات، أو استخدام برامج مُحدِّدات المضمون من خلال برامج تقوم بوضع أكبر قدر من الكلمات المفتاحيَّة لمنعها من إظهار النَّتائج للمستخدمين، وتوفير تطبيقات للسَّلامة الإلكترونيَّة.

- الوقاية:

من خلال نشر الوعي العامِّ بخطورة الهجمات الإلكترونيَّة على الأمن القوميِّ والخصوصيَّة الشَّخصيَّة.

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

info@mominoun.com
www.mominoun.com

All rights reserved © 2022

جميع الحقوق محفوظة © 2022